

6

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٧٥ قرشاً

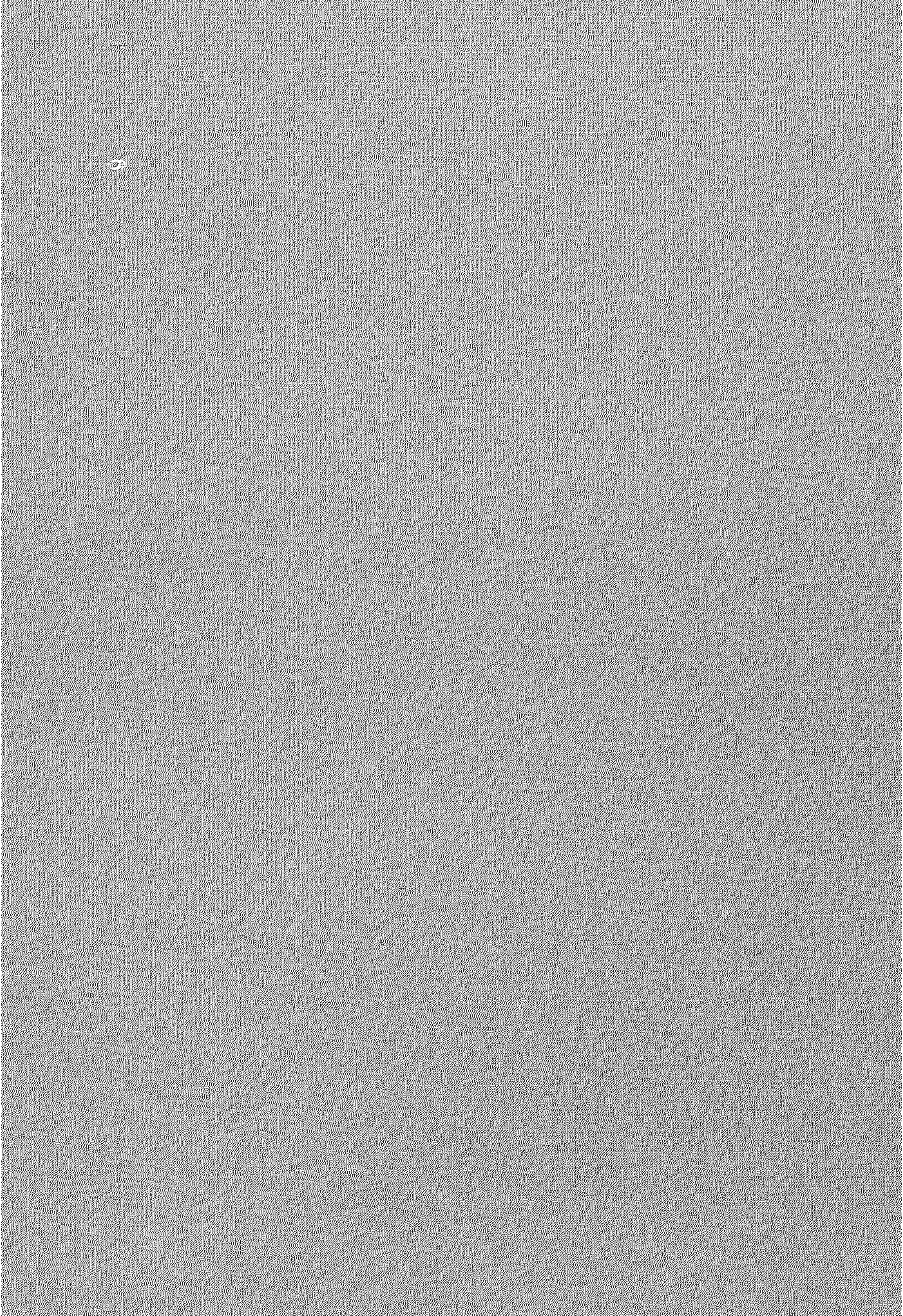


٢

الهيئة المصرية العامة للكتاب

صح النوم





مؤلفات یحییٰ حق

رنا

يجي حقي

صح النوم

القصص - ٢



مكتبة الملك عبدالعزيز العامة

١٩٩٤

الكتاب الأول
الذي

١ - قريتنا

أكانت * تكون بدعة أو خرافة لو مر بنا شريط السكة الحديدية ؟ ان نظره سريعة من عل الى الخريطة توصل بين المدينتين كالحيط بين شقى زتق واسع ، لا تنعرج الا بمقدار شعرة لو ألت بقريتنا الراقدة بين الغيطان •

واشتعلت الأقاويل فى العاصمة تؤكد ان الخط مرسوم عن عمد ، ليخدم أرضا بعيدة عن العمران ، يملكها نائب ذو جاه فى القرية المجاورة ، أما عشيرتنا فقد أدركت أن مروجى هذه الاشاعات هم خصوم النائب ، وابتسمت وتركت بعضهم ينهش لحم بعض • فحمدت الله أن ابتعد عنا الخط ووجع الرأس •

* انتهى المؤلف من كتابة رواية صح النوم : فى ٦ فبراير ١٩٥٥ ، ونشرت طبعتها الأولى فى ابريل من العام نفسه •

ولكن لا بد للمسألة من تفسير ، فقال أبناء قرينتنا ، وسترى
من قولهم أنهم أهل ظرف وتسامح وطيبة : ان المهندس كان اما
حنبليا فرسم الخط بالمسطرة لم تلتفت عينه يمنة أو يسرة ، أو
مخمورا فلم تع رأسه المملوءة بالطنين أو الألحان نداء قرينتنا اليه:
انا هنا - يا أخى - على بعد فرقة كعب من خطك .

وبعض أهل القرية يرجح الفرض الثانى بغمزة عين ، لأنهم
هم كذلك من عشاق بنت الكرم ، ولا يعذر المتيم الا متيم مثله .

ولم تغضب القرية لما حدث ، فأهلها معروفون أيضا فى
المقاطعة بسذاجتهم وتوكلهم على خالق الكون مقسم الأرزاق .

فهم لا يحبون كتابة العرائض ، مبرقشة بالأختام وبصمات
الأصابع يحررها الصراف ، ولا برقيات الاحتجاج يدبجها المعلم
الالزامى بانشائه البليغ ، ولا اللف على الدواوين بقيادة عمدتنا
العجوز وقد تزهق روحه من طلوع السلالم .

ولو أرادوا المشاكسة لما استطاعوا ، فقد مات عنا منذ زمن
بعيد وجيه القرية ، الذى يملك أكثر أراضيتها ومبانيها وكان هو
الذى يدافع عنا - أم تراه يدافع عن مصالحه الشخصية ا -
بحيل له كثيرة . فللمال سلطان يلتمس له كل المعاذير وتفتح له كافة
الأبواب - وخلف من ورائه ابنا لا نعرفه ، لأن أباه أرسله منذ
الصبا الى العاصمة لطلب العلم وبقي بها منقطعا عنا ، مكتفيا بأن

يرفع اليه الوكيل ايراده كل سنة • لا نعرف أخباره الا بالسماع
فثبت لدينا - ومن أجل ذلك سامحناه - انه اجتاز المدارس كلها
بنجاح باهر لأنه أحب العلم وأوغل في طلبه ايغالا شديدا ولذلك
اصطلحنا على أن نطلق عليه لقب « الاستاذ » وان كنا لم نره •
وسمعنا كذلك أنه كان قد اعتزم القدوم الينا فشغله شغل جديد
لا نعرفه ، ولكنه هو الذي قيده بالدار في عزلة من الناس ، فلعله
يدرس مشكلة عويصة أو يفكر في أمور خطيرة •

ورضيت القرية بحرمانها وقال الحلاق :

- ان رؤية القطار على بعد ميل أبهى بكثير من رؤيته
عن قرب ، وبخاصة في الليل ، حين تنساب أنواره ، فكأنما هو
دودة ضخمة رشيقة مضيئة من عجائب صنع الله ، تزيد خلقتة
جمالا على جمال • وما أكبر الفرق بين صفارة القطار تسمعها عن
قرب فتصم أذنك وتزعجك وبين أن تصل الى سمعك كأنها نذير
من وراء الحجب ، فتحصر ولولوتها البعيدة قلبك وأنت راقد في
فراشك تحسب أن الكون قد استسلم لنمط واحد ، فاذا بك تحس
فجأة أنه في تبدل مستمر واجتماع وفراق •

وقال العمدة :

- لن تزيد الحرائق في قرينتنا ، ولن تزيد بالتالي ضريبة
مآدبنا لمعاون البوليس وجند المطافئ اذا هبطوا علينا من المدينة،

ثم ان الله نجانا من نظار المحطات ، وأكثرهم من أقى المرايين
لأن أصلهم من الفلاحين ، والفلاح لا يدفع شيئا اذا أردفه جاره
على ظهر دابته ، ولكن هذا الغنم المبدول عند أهلهم بالمجان ،
يبيعونه هم طول اليوم بثمان عزيز ، والقطار سائر سائر بأمر
الحكومة ، ولو كان خاليا ، فما ضرهم لو باعوا هم أيضا القليل
العاجل بالكثير الآجل ؟ فتأصلت فيهم موهبة الرياء وهى جزء من
مكرهم الأزرق •

وقال المساح :

— ان منازل القرية المتداعية ستظل كاخوان الصفا متماسكة
بعضها فى حزن بعض لا تزعزعها زلزلة القطار •
وقال معلم الرسم فى مدرسة القرية :

— ستبقى جدران بيوتنا بيضاء لا يشوهها الدخان ولا تموت
تلك الزهور الجميلة التى تقاسمنا النوافذ فتظل علينا كما نطل
عليها ، وان كنا لا ندرى رأيا فى رائحتنا نحن !

أما أكثرنا سرورا فهو سائق العربة الوحيدة فى القرية ،
وهى عربة بحصان فرد ، قد ضمن رزقه وعلف جواده ، بنقله
الركاب — وأكثرهم من موظفى الحكومة أو التجار الغريباء — بين
القرية والكشك الصغير الذى أقامته المصلحة على الجسر بين
القريتين وسمته « محطة » وان كان ليس لها رصيف ، لا يقف

عليها في النهار أو الليل الا قطار واحد في الذهاب وآخر في
الاياب • من تلك القطارات التي تسمى « المتلطة » ، ونسبها
نحن من باب الفكاهة « بالمستعجلة » •

وتمنى صاحب العربة لو رأى هذا المهندس فربت على كتفه
ودعاه الى نزهة مجانية في عربته وخصه ، وهو يدير اليه رأسه
وجذعه بالتفاتة ونظراته وحديثه ، فالجواد خير بالطريق لا يحتاج
الى سوطه أو « تشك تشك » من لسانه ، وكلاهما في اللسع
واحد لأن الجواد - على تعبه - كريم ذو حياء ، ووجد السائق
حديثه المعاد شهيا لأنه يقع على أذن جديدة ، أما حديثه مع الجواد
فقد انتهى منذ زمن بعيد ، وفهم كل منهما صاحبه ، وأدرك متاعبه
وأسراره ، وليس في حياتهما الا عناء وملل •

وأهل القرية أسرة واحدة كبيرة معروفة بالكسل ، قليل تنقل
أفرادها ، ولكن اذا جاء النداء هبت جماعتهم - كما ينطلق سرب
الطيور المهاجرة فجأة من على الشجرة - وسافرت لحضور مولد
السيد ووفاء الندور ، فلا يضيرهم قطع الطريق الى المحطة مرة
كل عام • ومن بركات السيد أن جاء مولده في أواخر الربيع حين
لا شمس محرقة ، ولا أوحال تنغرز فيها أرجل الناس ، أو قوائم
الذبائح ، واذا سألتني عن شيء أذكر به هذه المواسم قلت لك :
انه خوار هذه الذبائح ، اسمعه عن بعد ، فأحس منه أنها تودع
صغارها الوداع الأخير •

وهكذا ظلت قريتنا فى مآمن من فضول الغرباء والمسافرين ،
وتطلعهم اليينا ، وما قد يتحفوننا به من البقايا المتناثرة من الطعام
والفاكهة ، ومن بقايا أخرى تحرمها تعليمات مصلحة السكة
الحديدية اذا وقف القطار فى المحطات ، ولكن أين من يضمن
اطاعتها ؟

وأدركت أن مسألة شريط السكة الحديدية قد انتهت وانقطع
كل أمل فى مروره بنا ، لما رأيت واعظ القرية يخرج عن صمته حين
أقبل يخب فى ثوبه المقلّم بالأحمر والأخضر كريش الديك ، حتى
أخذ مكانه على يمين العمدة ونحن نشرب الشاي عنده ذات مساء ،
تنحنح قليلا ثم قال بصوت جهورى مخاطبا العمدة ، ملتفتا اليينا
جميعا :

— نعم العمل عملك ! هكذا تكون الحكمة والسياسة وبعد
النظر ، كأنك ترى من وراء الغيب ، وأن هذه القرية لم تسعد
الا فى عهدك الزاهر فأنت الذى تدرأ عنها الأخطار والمتاعب ،
عهدك كله خير وبركة ، لا حرمننا الله منك ، اتنا لولاك لا نساوى
شيئا ، اننى أدعو الله فى كل ركعة أن يطيل عمرك ، ويوطد
مجدك .

وهب من مكانه وجرى الى العمدة وهوى على يده يصر على
أن يقبلها ، حتى كاد يندلق كوب الشاي على ثياب العمدة ، وأخذ
الواعظ يمسحها بكفه وهى لم تتلوث .. قائلا :
— أستغفر الله .. أستغفر الله ، لا حول ولا قوة الا بالله ..

٢ - صاحب الحان

وبقيت للقرية دنياها • اذا أتى المساء - سواء أكان القمر هلالاً أم بدراً - وفرغ الرجال الكادحون من عملهم ، تسلل بعضهم الى الحان حيث يشربون النبيذ ويلعبون الورق ، ويأكلون من الطعام ما لو قدم اليهم فى منازلهم لاستهانوا به ، ولاموا زوجاتهم عليه أو ازدردوه على مفضض ، ولكنهم فى الحان يجدونه لذيذ الطعم شهياً تدور عليه الأحاديث والأسمار والنكت والضحكات ، وقد تجردت القلوب من الغم والهم • ونجت من مشاكل الدار وحديثها التافه المعاد الممل ••

ويجوس خلال الموائد صاحب الحان • وهو رجل بدين ، خفيف الحركة ، ضخم الرأس ، قصير القامة ، بشوش الوجه ،

يعرف الجميع ويناديهم بأسمائهم فعل الصديق بصديقه • وقد سأله مرة كيف اختار هذه المهنة ؟ لأنه ورثها عن أبيه ، أم لأنه هو أيضا من عشاق الخمر ؟ وعندنا مثل يقول : « اذا تابت البغي انقلبت قوادة » • فقال لى وهو يضع ذراعه على كتفى :

— كنت أحسبك تعرفنى ولا تحتاج لهذا السؤال • فأنت ترى أمرى مفضوحا لمن له عينان تبصران مثلك — على الأقل فيما أوئل — أقول لك أولا اننى لا أحب الهم ولا حمل الهم ، والحياة خذ وهات ، فاذا أردت أن تسعد فعليك أن تسعد غيرك أولا • والخمر هى للانسان منذ قديم الزمان أكبر متعة ، فأنا أعيش أبدا فى جو مرح • حقا ان الخمر تبعث بعض الناس على الحزن ، وتسيل من الدموع ما قليله صادق وكثيره كاذب ، ولكنك ترانا هنا أسرة واحدة ، يعرف بعضنا بعضا ، فماتت بيننا تلك النزعة الخبيثة التى تسمى الاعتراف ، وهو داء يصيب بعض السكارى ، اذا وجدوا أنفسهم بين الغرباء •

— هل تمكر بى ؟ أنت تعلم أن المرح يطيل العمر ، فقصدك أن لا ترتخى قبضتك على الدنيا الا اذا غاصت على مهل آخر قطرة من ماء الحياة فى جسدك ، كما تهز أنت زجاجة الخمر الفارغة لتجود لك بعرق جدرانها ••

— لا يهمنى عدد السنين التى أعيشها ، ولكن يهمنى نوعها • فأنا سأعيش يومى هذا الذى أنا راض به سعيد ما شاء القدر لى

أن أعيش ، فلا تستطيع أن تقول عنى اننى سأموت شاباً أو شيخاً ،
فلن أخسر شيئاً اذا مت غداً ، ولن أكسب شيئاً اذا عشت — كما
تقول — مائة سنة أخرى •

وصمت صاحب الحان وهو ينظر الى مبتسماً ويقول :

— هل فهمت ؟

— نعم ، ولكنى هذا ما كنت أتوقعه فيك من قبل ، فأنت
لم تزدنى علماً •

— أرى النتائج عندك سليمة ، ولكن الأسباب باطلة دائماً ،
وستعيش طول عمرك حائراً مع أنك على حق ••

— كنت أظن الحلاق فيلسوف القرية فاذا بك أدهى منه ••

— اهزأ بى كما تشاء ، فهذه عادتك التى أرجو لك الشفاء
منها لأنها تحمل القلب على الفقر لا الغنى — ولكنى سأبرهن لك
على صدق نظرى ، فأفضى اليك بشىء جديد لم تفهمه من قبل •

وفارقنى ليلبى طلب أحد رواد الحان ، ثم عاد وصب لنفسه
كأساً وشربه ، ثم قال وهو يميل على :

— ان هذه المهنة هى التى تجعلنى أرى الناس على حقيقتهم ،
عراة كما ولدتهم أمهاتهم •

— بعض الناس يظن أن هذا شىء مخيف •

— لا • العكس صحيح • ان أصحاب هذا القول هم أشرار
الناس يخشون أن ينكشف الستر فيفضحوا هم أولا • ولكن
خذها عنى ، ان عاهات النفوس شىء بشع ، لأنها المخلوق الوحيد
الذى لا يعيش الا مختنقا ، فاذا أتحت له التنفس مات • ونحن
نتنفس هنا ••

ثم هز جسده وطمطم بشفتيه يقلد رعشة المحموم ، وقال:
— اننى أمقت الكذب والرياء والنفاق والخداع ، لا لأنها
تصيبنى بأذى ، بل لما أراه من أذاها بأصحابها • انها تمسخ
البشر ، وأنا أحب الناس وأريد أن أعاشرهم وهم على الفطرة التى
أرادها الله لهم سبحانه • اننى لا أستطيع الحياة الا فى هذا الجو
وبهذا الشرط •

انصرفت عنه وأنا أتعجب له ، ورفعت عينى الى تلك اللوحة
السوداء التى يخط عليها بالطباشير حساب بعض رواده ، وابتسمت
وأنا أرى كيف أنه فى سبيل غرامه بمهنته لا يستعجل بعضهم
الدفع ، وأكثرهم مدين له ، وجلست مع حلقة من الأصدقاء حول
احدى الموائد ، ولكن ذهنى كان لا يزال يفكر فى هذا الرجل
البدين ذى الذراعين الغليظين •

بعد أن ينصرف الرواد — وآخرهم لا ينصرف الا بشىء من
الزجر أو الدفع الرقيق — يقفل صاحب الحان أبوابه ويتكىء

بذراعيه على النصب الذي يقف من ورائه ليصب الخمر لمن يجب الشرب وقوفا - وهذا الحب يبعثه ثلاثة ، فرط الصبا ، والقلق ، واليأس - ثم يشعل لفافة تبغ يدخنها على مهل فلا تدرى من حركات شذقيه أهو يشد الدخان أم يحدث نفسه ؟ •

وتجول نظرتة بين الموائد والمقاعد الخالية ، ويبتسم مرة يمنا ، ومرة يسرة ، ثم يتشاءب وينفض ثيابه بأظافره ، ويطفىء الأنوار وهو يفتح بابا صغيرا ، من ورائه سلم يؤدي الى مسكنه فى الطابق الأعلى ، فيجد السلم مضاء ، فيصعده على مهل ، متعمدا أن تحدث أقدامه ضجة خفيفة لينبه زوجه أنه قادم • وما هى بحاجة الى هذا التنبيه ، فسيجدها كما وجدها كل ليلة « فى الردهة » تنتظره ، قد أعدت له الطست والأبريق وملابس نوم نظيفة •

ومع ذلك صاحبنا لذة كبيرة فى أن تحدث أقدامه هذه الضجة ، لأنه يراها مبدأ حديث الليل بينهما • وترضى نفسه اذا شعرت أنه هو الذى طلبها فجاءت له ، كما تنادى قطتك الأليفة • ولكن أى حديث ؟ انها امرأة نحيفة بقدر ما هو بدين ، لا تتكلم كثيرا ، وقد لا ترد على الجملة أو الجملتين الا بكلمة أو كلمتين ، ولكن نعمة كلامها القليل تنزل على قلبه بردا وسلاما ، ففيها تدليل وزجر ، وحث على الجد وترحيب مستتر بالهزل ، ورضى بالواقع ، وأمل فى قادم أفضل وغفران لماض • فيها الأمر والطاعة ، والاعراء والصد ، والطهر والنزوة معا • • تظهر له التجلد على مشاق الحياة ،

حتى اذا أحست أن اعزازه لها يصبح اعجابا خالصا أو اعترافا
بالجميل ، أبدت له من الضعف والتعب شيئا قليلا لا ينوء بهمه ،
فاذا رآته يحنو عليها أنكرت من جديد ضعفها وتعبها - كل هذا
متضمن فى نعمة كلامها القليل المتقطع ، من يقول ان الكلام منيعث
من أوتار الحنجرة كاذب وان كان له سند من العلم ان هذه الأوتار
موطنها القلب ذاته .

هى امرأة قانتة لا تترك فرضها . تكره التعرى حتى لزوجها ،
فان لها حياء الناقة الأنوف ، فاذا بهذا الرجل البدين يقف بين
يديها موقف الطفل الصغير . ولا تزال به حتى تدفعه الى الفراش
وتتضاءل بين ذراعيه وهى التى تضمه ضمة الأم لابنها ، لم يرزقهما
الله بولد . فلا عجب ان كان نداؤه لها : يا أماه !

هى ليست من قرينتنا ، وكان صاحب الحان قد سافر للعاصمة
ليشترى نيذره ، وعاد لنا بشيئين جديدين : هذه المرأة النحيلة
وجرح غليظ فى جبهته ، لم يشأ أن يكشف لأحد عن سره أو
سرهما ، وعاشت بيننا فى عزلة عنا ، شأن الغريبة لا تزور ولا تزار .
كأن زوجها هو عالمها الذى اكتفت به حياتها فلا تطلب فوقه مزيدا
- لذلك كرهتها نساء القرية ، وقلن مؤكداً انه التقطها من أزقة
البغاء أو من اصلاحية النساء ، بل قلن أيضا ان أحدا لا يعرف
هل تعاشره فى الحلال أو فى الحرام . . .

إذا طلع النهار هبطت الى الحان فكنسته ومسحته ورتبت
من جديد موائده ، وأعدت تنف الطعام الذى سيجده رواد الحان
شها لذيذا ، ثم اذا سمعت وقع أقدام زوجها حين يستيقظ من
نومه مع الظهر ، صعدت اليه وغابت فى محرابها •

ونساء القرية يظهرن السخط أيضا على صاحب الحان نفسه
فيزعن أنه هو الذى ينتزع منهن أزواجهن وما فى جيوبهم من
نقود قليلة هن وأولادهن أحق بها • وبالرغم من هذا السخط
فان حوادث الطلاق والنشوز والنفقة أقل فى قرينتنا من بقية القرى
المجاورة • فالحان عندنا هو الذى يفصل النساء عن الرجال فترة
من الزمن ، تعتدل فيها النفوس وتنسى المشاحنات ، ويعود الرجل
لداره وهو أشد شوقا لزوجه وحنانا لها ، وفهما لضعفها الذى
تغطيه بكساء من الجبروت •

والمرأة يلذ لها ويسعدها بدافع من عاطفة الأمومة أن تبكت
زوجها بين الحين والآخر ، وأن توقفه — وان كان بطلا ! — بين
يديها موقف الطفل المذنب الذى يؤنب ويوبخ ، حتى اذا غضب
امتدت له الأيدى المشفقة والأذرع المحبة ، وقال له القلب : انت
قطعة منى ، كيف أجفوك ؟ ولكنى لا أزعم أننا أكثر سعادة من
غيرتنا ، أو أننا لا نعرف المتاعب والمشاكل والمآسى ، فالحياة أينما
كانت لا تخلو منها ، وانما أقول ان منوال معيشتنا قد جمعنا له

الخيوط من محيطنا وظروفنا ونسجناها ثوبا مفصلا على قدنا ، ولو
لبسه آخر فلعله يضيق به ذرعا • فاختلف السعادة التي توهب
للشعر هو فى النوع لا فى المقدار • وكلما تأملت هذا القول
وجدت فيه عزاء كبيرا •

٣ - القصاب

يتزعم قصاب القرية - وهو يعد من أغنيائها - حلقة من أصدقاء يلازمونه ليلة بعد أخرى ، وأنا أحب صحبة هذا الرجل، لأن مائدته أقل الموائد ضجة وثرثرة ، ولأنتى أشعر اذا جلست اليه كأننى أنقلت من طريق ضيق يعج بالناس والدواب فى وهج الشمس الى حديقة صغيرة ملتفة الأغصان تقول لى زقزقة عصايرها : لم الضجة ؟ وفيم الجدل ؟

لمائدة القصاب جو خاص بها يسحرنى بمتناقضاته : هو فى النهار ينطق بالقسوة والتجهم ، تهبط يده بالساطور على اللحم والعظام كأنه تمثال مجسم لشیطان الهدم المكلف بتمزيق الحياة والتهامها ، أو كأنه يضرب عدوا لئىما له عنده ثأر قديم شديد

الجرح ، تتلوث يدها وملابسه. بالدم ، وقد يلطخ به جبينه حينما
يمسح عرقه ، وتحسب أن أنفه وعينه تجدان فى هذا الدم لذة
مشبعة •

مشيته الوئيدة تنقلب - وهو يحمل الذبيحة من العربة
الى الدكان - الى اسراع الكلب المتسلل بعظمة مسروقة ، تزيغ
عيناه وترميان بالشرر ، لو اقترب منه انسان لكشر له عن انيابه
وزمجر فى وجهه كالوحش •

ولكن كل هذا طلاء كاذب ، هو من أثر المهنة ، ولكل مهنة
قناع يخفى وجه صاحبها - فهذا الرجل نفسه حين أقابله بالليل
أجده كالطفل الوديع وألمس فيه طيبة متماسكة ثابتة الجذور
وهدوءا يستل أنياب ألف سؤال باقية بغير جواب ، وتسليما كأنه
قبة ندية تخرس صرخة النفس فى يأسها من بلوغ الجمال والحق
الهاربين أبدا ، وكأنه يقول لك : هذه هى الحياة ، خذها كما
تأتى ، اياك أن تظلم أو تؤذى أحدا ، واياك أن يرهقك الجود
وان اتهمك الناس بالسفه أو الغفلة والضعف •

وفى حياة القصاب مأساة أليمة ، لعلها هى أيضا مما يجذبني
اليه • يتحدث عنها أهل القرية سرا • بعضهم يعلم بها ولا يتتبع
أخبارها ، تاركاً الرجل لحظة ، لا يحكم عليه بشر أو بخير •
وبعضهم يتشم أنباءها - ساخرا من الرجل القوي كيف يستخذى

ومن القصاب يصبح خروفا •• وبعضهم - وهم قلة - تزيدهم هذه المأساة محبة للرجل واعزازا ، والعجيب أن نساء القرية - وإن لم يجهرن برأيهن - هن من هذا النفر الأخير •

بدأت هذه المأساة يوم أن هبط قريتنا منذ عشر سنوات سيرك متنقل ونصب خيامه على الجسر ، لم يمكث بيننا الا ثلاثة أيام ، ثم رحل ورحلت معه - ياللفضيحة - الفتاة السمراء التي كانت القرية كلها تحبها ، وتتوقع لها أن تتزوج من ابن عمها القصاب الثرى ، تحبها القرية لأنها فتاة جميلة ساذجة جريئة معا ، خفيفة الظل ، ولأنها فوق ذلك يتيمة • أبوها تاجر ميسور الحال عضته أزمة أعقاب الحرب بأنيابها ، فأفلس ومات مقهورا ، وترك زوجه وابنته فى فاقة ، فتقدم القصاب وتولى العناية بهما والاتفاق عليهما ورعايتهما • وقال بعض الناس انه يفعل ذلك لا لوجه الله بل لأنه يحب الفتاة السمراء من كل قلبه ويرجو أن يتزوجها • وظل صابرا لا يتعجل الأم أو الفتاة • فالفتاة لاتزال فى ميعة الصبا ، وهو يريد أن تتجلى الرغبة من جانبها هى أولا ، حتى لا يكون رضاؤها مفروضا عليها ، أو استجابة لواجب الوفاء بالجميل فالحب أنانى عنيد مخلوع العذار ، وجوهر صاف لا يمتزج بغيره •

وذهبت الفتاة مع أمها للسيرك أول ليلة ، تكاد تطير من الفرح ، فلا تعرف قريتنا من الملاحى شيئا كثيرا ، وجلست

مشدودة الأعصاب مشرّبة العنق جائعة النظرة تلتهم كل ما تراه
وتضحك ملء شديها كالأطفال • ومر أمامها على نعم تغير وطبلة
نقر - تعزف أدوارا قديمة - مخاطر البهلوان ورقص الخيل
والأعيب الكلاب المدربة ، وهذا العراك الفكه بين حمار وصاحبه
حتى أوقع الحمار صاحبه على الأرض ، وهو فصل مضحك لا تراه
الا في سيرك الأرياف •

ثم خرج فتى متوسط القامة ، ضخم كأنه كرة منتفخة ،
يلبس طرطورا ، قد لطح وجهه بمسحوق أبيض • هذا هو المهرج ،
يصنع ويركل ويصب عليه الماء وهو يضحك ويقفز ، ويقع ويقوم ،
والناس ترثى لحاله وتضحك معا ودار الفتى على المتفرجين يعابث
هذا الصبى ويخيف آخر ، حتى وقف أمامها ، واقترب وجهه من
وجهها ، فرأت مابقى من شفثيه من سطر أحمر بدا لها فى لون
الدم ، وأمسك بضميرتها اليمنى وجذبها من وراء ظهرها ، وأنزلها
على كتفها فوق صدرها ، ثم ثبتت نظرتة على عينيها لحظة قصيرة
وانصرف عنها الى غيرها •

ضاقت ذرعا بهذا العبث أول الأمر ، واحمر وجهها خجلا
اذ لم تعتد أن تمتد يد غريبة لشعرها - ويحدث هذا أمام الناس
أيضا !! ثم أحست فى جسدها رعشة باردة لم تفهم سببها • هذا
الوجه الذى اختفى تحت طلائه ، لم يبق فيه أمامها الا عيانان
واسعتان سوداوان عميقتان مضيئتان ، تخفيان تحت نقاب من

البله الكاذب شعلة متأججة بالبهجة والجذل وحب الحياة ، نفذت هذه النظرة الى قلبها فأحست أن حياتها كلها قد انقلبت فجأة من لون أبكم حائل لا سحر له ولا طعم — يعيش فيه جسدها وروحها معيشة الطفيليات العمى لا تدرى من أمرها ولا من أمر ما حولها شيئاً — الى لون ناطق متوهج ذابت فيه تلك الطفيليات وأصبحت الحياة والبهجة ، والجسد والروح ، شيئاً واحداً وكيانا متحداً لا ينفصل فيه عنصر عن آخر .

وفى اليوم التالى رآته عند الظهيرة يشق السوق ليشتري من يقال جينا وزيتونا هو كل طعام غدائه . فوجدته فتى نحيلاً شاحب الوجه ، يسير متمهلاً قد كسر نظرتة الى الأرض من الحياء ، كل ما فيه ينطق بأن جذله يتضاعف لو وجد شريكاً يقاسمه هذا الجذل . أما اذا ترك لنفسه ، فسيخبو الضوء من قلبه ، وسيهبط سلم الحياة والصحة درجة درجة ، حتى تذيبه الفاقة ويتلفه المرض .

لم يذهب للسيرك فى الليلة الثانية من ذهب اليه فى الليلة الأولى فلسنا من الأغنياء ، ولا يقدم السيرك الا برنامجاً واحداً يتكرر كل ليلة، ولكن الفتاة السمراء ألحت على أمها حتى صحبتها للسيرك مرة ثانية . ووقف المهرج أمامها أيضاً ، وأمسك بضميرتها اليسرى وجذبها من وراء ظهرها ، وأنزلها على كتفها فوق صدرها . وقالت لها عيناه الضاحكتان « كيف أمسيت ، وكيف

أصبحت « ؟ لا يذكر من المتفرجين الا هذا الوجه الصبوح
الأسمر الذى ينم لونه عن الصحة ، صحة الجسم والروح معا •
هل يبقى فى الحياة غم لمن يصبح ويمسى على رؤية هذا الوجه
الجميل ؟ هى فتاة كالزهور البرية تحتاج الى الشمس والهواء ،
لا أن تبقى حبيسة فى وعاء بين الجدران •

وفى الليلة الثالثة كانت الفتاة فى مقعدها ، وجلست الأم
مقطبة الجبين ، لا تحب اسراف ابنتها فى انفاق المال وهو عزيز •
وتعش نفسها بأن هذا هو سبب استيائها من نزق ابنتها ، على
حين أن قلبها تصهره مخاوف وشكوك أخرى ، هى أشد خطرا من
الاسراف ، ثم الويل لها من ألسنة الناس •

ودار المهرج دورته ووقف أمام الفتاة السمرء ، وأمسك
هذه المرة بضميرتها معا ، وربط احدهما بالأخرى على صدرها
فى عقدة جمعت التوأمين المفترقين ، وتمت بها دورة الكهرياء ••
عقدة على ضعفها لا انفصام لها ••

وأخذت الفتاة تحدث نفسها وهى تأوى الى فراشها ••
ما أجمل صحبة مثل هذا الرفيق ! ترى معه بلاد القطر كله ، من
شماله الى جنوبه ، وتجوب طرقاته ، وتسمع كل أصواته ، لا يكربها
ضييق بمكان حتى تشد الرحال الى مكان غيره • لو ظلت فى
القرية لما بقى لها مفر من أن تستجيب لرغبة الجميع ، وتتزوج ابن
عمها القصاب ، وهو رجل طيب أمير ، ولكن قلبها لا يميل اليه ،

وهى لا تحب رائحة الدم واللحم والعظام • ولو لم تتزوجه لسلفتها
القرية بألسنة حداد ، وحكموا عليها بأنها ناكرة للجميل ، ولم تنس
القرية بعد كيف نشأت منذ صغرها فتاة شاذة ، لا تحب اللعب
مع الفتيات ، بل مع الفتيان ، تتسلق معهم الأشجار ، وتجري فى
الغيطان وراء الضفادع والزناير ••

ولما رحل السيرك رحلت انفتاة السمراء معه ، وكانت فضيحة
كبيرة فى القرية ، لم يخفف من وقعها الا ما علمناه بعد ذلك من
أن الفتى عقد عليها فى القرية المجاورة ، وما بلغنا من أنه سليل
أسرة طيبة أخنى عليها الدهر ، وأنه يعاملها معاملة حسنة كريمة •
أما الأم فقد اختفت عن الأنظار وركبها المرض ، ولم تليث
أن فارقت هذه الحياة وهى تنعى حظها وتتحسر على ابنتها ،
وتدعو لها بالسلامة •

ومرت أعوام ••

وذات صباح ذهب السائق كعادته بعربته الفرد الى المحطة
ينتظر رزقه ، فاذا بالفتاة السمراء تهبط من القطار ومعها ولدان
وبنت ، ووقفت مرتبكة تتلفت يمنا ويسرة •• ترك بقية الركاب
وجرى اليها مسلما مرحبا ، فكادت تهيم بذراعيها تطوق بهما رقبتهم
وتقبله ثم ، بكت وهى تقول :

— ماتت أمى ، ومات زوجى ، وفى رقبتى هؤلاء الأيتام ،
ولا أدرى ماذا أفعل ؟ ولا أين أذهب ؟

قال لها وهو مبتسم :

— البلد بلدك والدنيا بخير ، تعالى ، أنا أعرف الى أين أقودك •

— ابن عمى ؟ وهل يقيلنى ؟

— ستفسدين كل شىء اذا طلبت منه المغفرة • فان هذا سيفتح جراحه من جديد • ادخلى عليه كما يدخل المسافر العزيز يؤوب من رحلة طويلة ، وفى يده هدية •

— أى هدية ؟ وأنت ترى ثيابى الرثة ، وهذا القفص وهذه الربطة هى كل ما بقى لى من حطام الدنيا •

— وهل هناك هدية أعلى من ثلاثة أيتام ؟ ان نبينا نشأ يتيماً ، ولا أعرف كتاباً سماوياً مثل كتابنا تحدث عن الأيتام وحض على الرفق بهم ، وابن عمك رجل طيب أمير ، وأنت تعرفين •

وهز رأسه وخفتت بهجته حينما سمعها تجيبه :

— من أجل أيتامى خذنى اليه •

وعلمت القرية كلها أن المهرج مات فى بلد قفر قصى ، نزله السيرك مع وباء خبيث استشرى به ، حصد الأرواح وخرب البيوت ، وضاعت مناحتها على زوجها وسط مناخة عامة • ورجعت

هى القهقرى ، وحيدة لا رفيق لها ، لأن فتاها المتنقل من بلد الى بلد قد حط رحاله فى مقابر الغرباء •

ولما دقت الباب وخرج لها القصاب ، ورآها لم يزد عن أن يقول لها :

— أهلا وسهلا ومرحبا بك وبأولادك •

واستأذنها فى الخروج ليدعو لها بعض نساء الأسرة ولكنها قالت وهى تميل وجهها نحو أولادها :

— لم ازعاجهن ؟ وأنا لا أريد أن أرى الآن أحدا • تفعل خيرا لو عدت بالمأذون وحده ، ان شئت بقائى معك •
وأخيرا رضيت ، وكان الرضا من جانبها •

وقال بعض رجال القرية : كان ينبغى أن يطردها ، أو أن يشير عليها بأن تتزوج هذه المرة بهلوانا ! وقالت نساء القرية : مسكينة ! بختها مائل ، وهى بنت حلال • وأكبرن فى القصاب كرمه وتسامحه ، وان علمن أنه الحب •

وبدأت القرية تنساها ، ثم أخذت الاشاعات تهمس بأن الفتاة السمراء من طينة لا تنفع فيها التجارب ولا يأسرها الكرم والتسامح • لبست أحسن الثياب ، وأصاب أولادها من أطيب

طعام ومع ذلك ظلت ساهمة النظرة ، منطوية على نفسها ، لا تأبه
لما يدور حولها •

وذهبت فى يوم مع صحبة من أترابها الى مطحن القرية
لتطحن قمحها ، وجلست فى ركن منعزل ، وتحمقت زميلاتنا وهن
يتدافعن ويتسابقن حول صبي الطحان ، لا تسمع من مكانها
الا الضحك ونقاشا كله عبث ومرح •

وفى طريق العودة الى الدار سمعت من رفيقاتها أن هذا
الفتى غريب عن القرية ، وأنه يتيم ، وأن يومه ينقضى فى هذا
المطحن ، فهو يعمل فيه من طلوع الشمس الى غروبها ، ثم يسوقه
الاعياء الى حجرة صغيرة خلف المطحن تطل على المقبرة ، فينام
فيها كالقتيل ، حتى يوقظه وقاد المطحن بأول صفارة مع الفجر ••
فلم يبق له وقت يتوجع فيه أو يشكو ••

وفى المرة الثانية جلست فى مكانها القصى ، ولكنها مدت
أذنها الى ضحكات أترابها وابتسمت قليلا ••

وجدت أعصابها شيئاً من الهدوء فى المطحن ، بالرغم من
ضجة الآلة وثرثرة النساء ، وهذه الذرات البيض تكسو الأهداب
فتصبح كأهداب عدو الشمس ، وتنفذ من الأنف الى الحلق •
تملاً الجو فيخيل لها انها ترى من وراء ستار من الموصلى (١)

(١) قماش رقيق منسوب الى مدينة « الموصل » بالعراق ، وهو نفسه
المعروف الآن باسم « الموسلين » •

— وهكذا ستر الغيب للأنفس المتشوقة — منظرا من الحياة كيف
تكون فى كوكب آخر •

ولعل سبب هدوئها هو سحر الدقيق الطازج ، تمد فيه اليد
فتحس بحياة غنية كريمة ، فيها الدفء والندى معا ، وكأنها
تصافح مخلوقا له براءة البكر ، هشا قد خلع دروعه وان أوحى
عريه فى الوقت ذاته بقوة ومجد تليد ، وللدقيق الطازج رائحة
تجمع بين تنفس سنابل القمح فى الحقل تفوح بسر اللقاح ومخاض
الطين ، وبين عطر الخبز الطازج الخارج لتوه من الفرن وهو من
أرق العطور • هذه الرائحة ترد الفتاة للحياة بيها فجرها الأول
قبل أن يطلع الاثم والدنس ، وتمثل العمل والكدح فى الهواء
الطلق بعيدا عن الوشايات والاشاعات •

وفى المرة الثالثة ، حينما أرادت أن تحمل قفتها ، رأت يدين
تمتدان لمساعدتها على وضعها فوق رأسها ، فرفعت وجهها فاذا بها
أمام وجه ملطخ بالدقيق ، يلبس صاحبه طاقة على هيئة الطرطور
صنعت من قماش أكياس الدقيق •

رقدت ليلتها ساهرة تتقلب على الجنين ، واذا غفت قطعت
نومها أحلام ملأى بالأشباح والأصوات ، كأن عالما آخر
يتخطفها من دنياها •• وجاءها زوجها ، فأبت عليه معتذرة بأنها
مريضة •

وكان لا بد لها أن تصدق ، فاستسلمت للفراش أياما غير قليلة ، فى آذانها طنين لا تعرف سببه ، ثم حين جاء موعد الطحن هبت من فراشها سليمة نشطة ، وان ظلت ذاهلة النظرة متلعثمة النطق •

قدمها صبى الطحان على أترابها ، وأخذت تنظر اليه وتفحصه • شاب نحيل مطبق، كأنما مر هو أيضا بشقى الطاحون • وجه طويل مجهد صابر وجبهة مرتفعة ، وشعر كله حلقات صغيرة مصفرة الأطراف ، وأذنان كبيرتان كأذنى القفّة • هو صموت لا يتكلم الا نادرا وبألفاظ قليلة ، جسده متصلب الحركات ، يمشى زحفا ثم ينحنى فكأنما تهوى رأسه من كسر مفاجيء وسط ظهره ، ثم يلوى رقبتة وهو منكفئ ثابت الجذع ، يتلفت للنسوة شمالا ويمينا بنصف وجهه ، فلا يبقى الا القليل حتى تنخلع رأسه من جسده ، وما هو كذلك على هذه المبالغة ، ولكنها هكذا رآته ، فأنجذب قلبها اليه ، وملاه عطف شديد متدفق ، وتملكتها رغبة لا تقاوم فى أن تضمه بين ذراعيها لتلين حركته وينطلق لسانه ••

وزعمت الاشاعات بعد ذلك أنها تقابل صبى الطحان بالليل فى غفلة من زوجها ، وأنها لا تتركه الا اذا أكل ما تحمله له من طعام وفاكهة وحلوى ، وأن الأشباح التى أصبحت تجوس خلال

المقبرة تحت جنح الظلام وتتحدث في همس ، ليست من عالم الجن كما يظن بعض السكارى العائدين لبيوتهم •
وزعمت ألسنة أخرى أن بعض نساء القرية يتطوعن لتيسير هذا اللقاء ، والتستر عليه ، ولا أستغرب ذلك على نساء قرينتنا ، فهن في حاجة الى سر يستعلن به على الرجال ، وتستهوين المخاطرة ، وهذه الحيرة اللذيذة بين لا ونعم •

ولأن هذه الفتاة قد وهبها الله سحرا يجعلها محببة للقلوب مهما فعلت ، وكما تختار الأسرة ولدا من أولادها تكييل عليه كل حنانها وتدليلها ، فكذلك اختارت قرينتنا هذه الفتاة لتغفر لها كل ذنب • ليس هناك دليل واحد على أن علاقتها بصبي الطحان قد تجاوزت حد اللقاء البريء ، وحذب كحذب العجائز على القلط المشردة ، الى ما يآباه الدين والشرف •

ومع ذلك لا يصدق أحد أنهما يقيان طاهري الذيل اذا ضمهما الليل تحت جناحه وحجبهما عن العالم والناس • والله أعلم بما يجرى بينهما ، وماذا تقول له ويقول لها !

ولعل حيرة الحائرين تزداد لو رأوها وهي تأوي الى فراشها بعد أن يتعشى أولادها وينامون ، براقاة العينين ذابلة الشفتين ، خاشعة متوسلة :

يارب ! أنت الذى خلقت القلب ، فأنت اذن من يهبه ،
والا كيف تبوء كل مقاومة بالاخفاق ؟ وأى شىء يجذبني غير أمرك
وقدرك ؟ ولكن لماذا حين تخلق الحب لا تزد الناس بصرا وفهما ؟
ولا تزيل ما على عيونهم من غشاوة وما فى نفوسهم من قسوة
وجحود ؟ لماذا خلقت حيا يخيب الآمال ويذيق العذاب أرواحا
كريمة ينبغي لها أن لا تتعذب ؟ كيف يكون - وهو نور وحنان -
قوة محطمة مدمرة ؟ تمزجه أحيانا بالحيرة بين واجب وواجب ،
وكلاهما أنت فارضه .. من أخون ؟ قلبى أم أولادى ؟ لا ، لن
أخون هذا ولا أولئك فارحمنى واغفر لى واستر على ..

أما القصاب فقد بلغته هذه الاشاعات فسكت عنها ، وأبت
كرامته أن يتجسس عليها ، ولما أصابه مرض خفيف تعلل به ونقل
مكان نومه من جوار زوجه الى حجرة أخرى ، وبقي بها بعد
شفائه .

ماذا يفعل ؟ هل يطردها ؟ انه يحبها . وحتى لو لم يحبها
فأين تذهب بأطفالها ؟ أتركهم مشردين بعد أن وجدوا الأمان
تحت سقف بيته . هى زوجه وبنت عمه ، فكيف يسترها الناس
إذا فضحها هو ؟

ولو أن الاشاعات ذكرت رجلا ميسور الحال يستطيع الاتفاق
عليها وعلى أولادها ، لسرحها باحسان . ولكن صبي الطحان
لا يكاد يبلغ قوت يومه الا بشق النفس . لعلها نزوة عابرة لا تلبث

أن تزول ، وتستفيق الفتاة وترى من أى معدن هو • اذن فلتبق،
كضيف عزيز ••

تركها لخالقها هو بها أعلم وأرحم ، فليقل الناس عنه
ما يقولون ، وليسخروا به ما يشاؤون ، يطلبون الرحمة
ولا يرحمون ، تبا لهم •

وأخذ القصاب يمضى لياليه فى الحان ، مع زمرة من أصدقاء
له مخلصين ، لا يجرؤ أحد أن يفتحه فى شأن هذه الاشاعات ،
ولا يشك أحد أنه عالم بها • ويظل هو - والأنظار تتخاطفه -
هاديء النفس ، مبتسم الثغر ، غافرا ، مؤجلا الحساب ليوم
الحساب بين يدي المنتقم الجبار ، الرحيم الرحمن ••

٤ - القزم

قطع تأملاتي صوت عال استبد به السكر ، يرتفع قرب
المنصة :

– كوب من الجعة على حسابي للجميع ! هذا يوم مفترج
وفرصة قد لا تعوض •

أثار هذا الكرم المخمور ابتسامنا جميعا ، وظل الكثيرون
منا سادرين في أحاديثهم وشرابهم لا يأبهون لما سمعوا ولا يلتفتون
نحو قائله ، فكلنا نعرفه ، وهذا شيء قد أفضاه منه مرة كل شهرين
أو ثلاثة ، ونعرف أيضا كيف تبدأ الواقعة وكيف تنتهي دائما ،
لم يمض وقت قليل حتى انقلبت الابتسامات الى مرح شامل ،

والتفت الجميع نحو النصب ليضحكوا من منظر رجل قصير القامة ، يكاد يكون قزما ، يلوح بيديه ويشد صاحب الحان من كفه ويتشبث ببعض الرواد المعترضين على اسرافه الراغبين عن انتهاز فرصة سكره واستغلال كرمه وهو يجذبهم نحو النصب جذبا عنيفا عنده هينا عندهم ، يحلف عليهم بأغلظ الأيمان أن يشربوا ، ثم يلتفت للحاضرين جميعا يهددهم أنهم لو عصوه فلن يروه معهم مرة أخرى •

ونفهم من هذا التهديد كم يحبنا هذا الرجل ، فعنده أن القطيعة بيننا هي من أكبر الدواهي عليه وعلينا معا ، أخذ بعض الواقفين حوله يلينون له قليلا ويربتون على كتفه : لا تغضب ، هدىء روعك ... قد فهموا أنه يفسر التأبى والتمنع بأنهم يرونه لقصر قامته وحده طبعه طفلا لا يؤخذ مأخذ الجد ، ليس لهم كفؤا ، وان عصيان أمره نوع من الحجر عليه ، وأنه يخشى أن تفصح نظراتهم بما يدور في خلدتهم :

— يا أخى ! ليست هذه النقود نقودك حتى تبعتها هكذا!

وحين يرى أن لينهم له لا يقودهم بعد للنصب يريد وجهه غضبا أو حياء ، أهذا جزاؤه وهو يفتح لهم كل ليلة مغاليق قلبه ، ويحدثهم عن أدق أسراره ويخلطهم بروحه •

زال غضبه سريعا ووقف حائرا قد ركب يأس شديد وغم ،

فلم يقو أحد منا على تركه فى هذا العذاب الممض ورددناه من جديد الى المرح ونحن نشرب كوب الجعة على حسابه ، ولكنه لا يستجيب للمرح بسهولة ، ألم يكن الأولى بنا أن نذيقه السعادة صرفا دون أن نمزجها بالألم • لا يبقى للاكرام طعم أو معنى اذا جاء قسرا أو بعد الحاح والحاف • وانبرى أحد الخبثاء يوجه اليه سؤالا ينسيه كل همومه وتمزقه بين الهزيمة والاقتصار بجيئه بعد اعياء :

— متى كان الصلح ؟ وكيف احتلت له ؟ وكم أخذت ؟

جاءه الفرج ، قد أتحننا له أن يتحدث ، ويفضى الينا بأسراره وهو حين يفعل ذلك تهدأ نفسه ويطيب خاطره •

هذا القزم يعد نفسه من أبناء قريتنا ، وما هو كذلك ، فهو ينحدر من أسرة لا تجرى فى عروقها دماء الفلاحين ، اذا ذكر لنا موطنها الأول تخيلنا قوما يعيشون فى البرارى ، يلبسون فرو الأغنام ، ويسيطرون على أرجل مقوسة ، ويأكلون اللحم المقبد طول الشتاء ، قد أوصدت الثلوج أبواب منازلهم • كيف رضوا بترك الوطن والهجرة الى بلد غريب ونحن تفضل أن نموت ولا نبارح قريتنا ولو كان انتقالنا الى بلد قريب من بلاد الوطن •

وأقامت هذه الأسرة فى العاصمة واتصلت بحاشية السلطان

— وهو من جنس دمائها — فأقطعها أرضا فسيحة فى زمامنا •

وبنت تلك الأسرة في هذه الأرض منزلا كبيرا كان أثاثه
وتحفه حديث أهل القرية ودهشتهم ، أوان عجبية الشكل من
المرمر والرخام ، ودروع وسيوف معقوفة معلقة على الجدران ،
وسجاد كبير تغوص فيه الأقدام ومع ذلك يكاد يصر في مندبل ،
وجاء مع الأثاث غزال وبيغاء وقرود « وكان فرحة لصبيان القرية »
وقطة بيضاء مكورة بليدة يختلف لون إحدى عينيها عن لون
أختها ••

ولما علم أجدادنا أنها فوق ذلك صماء لم يعجبوا من هربها
أمام الفأر ، أين هي من قططنا ، تدخل بيوتنا وتخرج ، لأنابه بها ،
ولا تأبه بنا ، ضامرة البطن مشدودة كالوتر ، متكبرة ماكرة ،
ما بين رؤيتها للفأر وانقضاضها عليه الا ومضة البرق ••

تجىء الأسرة مع المحصول ثم اذا انتفخت جيوبها عادت الى
العاصمة ••

وشاء ربك مالك الملك أن يخلف الآباء أبناء أضعوا ما ورثوا
وأخذت الأرض تتناقص أطرافها ويد الخراب تمتد الى المنزل
واختفى الغزال والقط والبيغاء والقرود ، ولم يبق لسلالة هذه
الأسرة في وقتنا هذا الا ثلاثة أفدنة وحجرتان فوق مدخل الدار
لم تنهدم جدرانها وان كان لا يزال معلقا بها سيف صديء ودرع
علاه التراب •

ولما مات أمين مخزن السماد فى قريتنا « وهو دكان صغير
من أملاك الجمعية الزراعية » وعلمنا أن حفيد هذه الأسرة قد
بذل جهدا كبيرا ليفوز بهذا المنصب الهين ومرتبته الضئيل . أخذنا
العجب وقلنا لعله رضى به لأنه سيعيش فيما تبقى من منزل الأسرة
ويراقب أرضه ويتنفع بخيراتها .

روى لنا سائق العربة الفرد يوم وصل صاحبنا بالقطار كيف
نزل مرفوع الهامة منتفشا ، تحت ابطه عصا قصيرة ، يتلفت
شمالا ويمينا ، يشير باصبعه للسائق ، كأنه قائد أصيب بالخرس
وسط معمعة - وانما هو الخجل ! - وتقدم نحو العربة ثم وقف
ينادى بكلمة « يا هانم » امرأة ضخمة بدينة يزجرها لتسرع قليلا
فتلحق به ، هذه هى زوجه تخب فى ثياب غالية من الحرير .
واحتلت مكانها بجانبه وهو منتصب القامة مرفوع الرأس ، كأنما
جاءوا له - يدل العربة - بفرس أصيل فركبه . هكذا يريد أن
يدخل القرية .

ودهشنا حين رأيناه يعدل عن منزل الأسرة الخرب ويختار
دارا حسنة جميلة فى أطراف القرية يدفع لها ايجارا يوازى مرتبه،
ثم يأتى فى أثره أثاث لا بأس به ، يدل على سعة العيش ، ويأتى
معه أيضا خادم أسود ، وهو ترف لا تعرفه قريتنا .

علمنا بعد ذلك حقيقة أمره ، كانت أسرته لم يبق فيها من

الرجال الا هو ، ويلتف بهذا القزم عدد قليل من النساء ، بعضهن
أرامل ، وأغلبهن عوانس ، وكلهن مصابات بأمراض وعلل شتى ،
يعشن جميعا فى قاعة متسترة فى منازل مختبئة فى أزقة العاصمة،
ثم ترملت فى الزمن الأخير احدى قريباته وخلف لها زوجها المرحوم
ثروة غير يسيرة ، وأصبحت هى زعيمة الأسرة من حيث الثراء ،
فكان من الطبيعى أن تنضم الزعيمة للزعيم ، ولكن صاحبنا القزم
ظل مترددا زمتا طويلا ، لا يضيره هذا الفارق الهائل بين حجمه
وحجمها « وكان هذا الفارق مثار سخرية أهل القرية وانكباب
بعض الأفواه على بعض الآذان بسؤال خبيث » فهو أولا لا يؤمن
بأنه قزم ، وحتى لو فرض جدلا أنه كذلك فإن له هيئة تنسى الناس
قياس قامته ، ولن يكربه هذا الفارق فان النساء يقبعن فى بيوتهن،
وليس من عادتنا أن يخرج الرجل مع زوجته ، فانتا نأبى ونخجل
خجلا مربكا أن نرى فى صحبة نساءنا .

انما سبب ترده أن هذه المرأة دمية الخلقة ، بشعة
الصورة . لها عينان وأنف وفم وأذنان كبقية خلق الله ، ولكنها
ركبت أو بعثرت فى وجهه عكر فج كالرغيف من العجين ، ناتىء
الجبهة ، مهزوم الذقن ، يحتل الخد الأيسر ندبة سوداء كبيرة
كالزيتونة ، ينبت منها فرعان أو ثلاثة من شعر صلب مقوس . .
وأخيرا قال القزم ، بعد أن وضعت الزعيمة يدها على التركة ،
أتزوجها قياما بواجبى كزعيم الأسرة فليس لها أحد غيرى .

ورفض القزم أن تقول عنه انها تزوجت من عاطل ، اذا طلع
عليهما الصباح بقى فى الدار بملابسها كالنسوة • لا يخرج الى
عمل ولا يعود من عمل ، فلا تعرف متى يخرج ومتى يدخل •
لم يبق له الا أن يدخل المطبخ ويكشف الأواني ويتشمم الطعام ••
وإذا فعل الرجل ذلك زال احترامه بته من قلب زوجته ، فسعى
صاحبنا حتى فاز بوظيفة أمين مخزن السماد فى قريننا ، وبهذا
لا يصبح عاطلا ، وسيعيش فى وسط أناس يعرفون قدره وأصله
فتسم له كرامة وعمل وجاه •

وتملكنا شىء من الانزعاج كتمناه فى قلوبنا حين رأيناه
يتردد على الحان ليلة بعد أخرى ، هو أول القادمين وآخر
المنصرفين • لا يجيئها كما تفعل نحن للقاء الأصدقاء والسمر
وتمضية السهرة ، بل يجيئها كالغزاة متعمدا لفت الأنظار اليه
واصطفاء بطانة تلوذ به ، مبعثرا تقوده فى الفارغ والملاّن ••

من أين له هذا المال ؟ لم نلبث أن علمنا أنه يبتزّه من زوجته،
ووصلتنا روايات الجيران عن عراكهما وصياحهما •• ولم يكتف
صاحبنا بهذا البذخ ، بل سمعنا بعد ذلك أن رحلاته لعاصمة
الاقليم للتمون — كما يقول — من السماد انما هى زيارات لفتاة
من بائعات الهوى خيل اليه أنها تحبه ، فأحياها ، اذا جاءها أغلقت
الأبواب والنوافذ وأعلنت المعجبين بها أنها فى تلك الليلة وقف على

صاحبها ولو بذلوا لها من المال فوق ما يبذل هو ، أليس هذا دليل المحبة والاعزاز والاعتراف بقدره ومكائنه ؟

ولما ألفنا منه مسلكه هذا نسينا انزعاجنا وأصبحنا لا نراه حتى يشملنا جو من اللهو والمباشطة والدعابة ، ماذا عسانا تفعل غير ذلك مع قزم يجمع فى وقت واحد بين المهابة والعريضة ؟ يريد منا أن نحترمه حين يتبسط معنا ، وأن تتبسط معه حين يزور عنا متعجرفا . نتلذذ من سماع قصصه عن زوجه ، كيف تغضب لاسرافه ، فيعالج غضبها بغضب أشد ارهابا لها ، فلا تقوى على احتمال رؤيته مغموما فتجود عليه بما يسأل ، يقسم لها أنه يطلب منها المال هذه المرة لسداد ديونه وأنه لن يعود لتبذيره أبدا ، وسيمضى كل لياليه فى الدار .

وجاء يوم نفذ فيه صبرها ويثست من علاج زوجها ، لو ترك لها الأمر لأحسنت رعاية هذا المال وتدييره وتوفيره ، فلا يعلم أحد ماذا يأتى به الدهر . وخال لها أن القزم لن يرعوى عن غيه مادام يجد فى جيوبها نقودا ، فلا حل اذن الا أن تفلس هى أولا، ورغم أنفها ، ولكن أين تنفق نقودها وليس فى قرينتنا مصرف مالى ، وحتى لو كان بها مثل هذا المصرف فان نساءنا « ومن قبلهن رجالنا » لا يعرفن شيئا يسمى ايداع النقود فى المصارف .

وليس فى قرينتنا أيضا متاجر لبيع الثياب الغالية أو العطور النادرة ، فهدتها فطنتها الى بعثرة النقود على جيرانها من المأزومين

والمساكين ورتبت لأسر فقيرة اعانة شهرية لا تنقطع ، وتكفلت
برعاية بعض أيتام القرية ، من مآكل وملبس وتعليم ، لا تسمع عن
أسرة فى ضنك من العيش قد زارها المرض بوجهه الكئيب حتى
تهرول اليها محملة بالهدايا فاذا خرجت وجدت الأسرة مبلغا من
المال مدسوسا تحت الوسادة . .

فذاع صيتها وعم خيرها القرية ، وأحبها الناس حبا جما
ودعوا لها بالخير ، يضربون بها المثل فى النبل والكرم والعطف
على الفقراء والمساكين . وصارت دارها مقصد المحتاجين .

وأصبح القزم لا يزور عاصمة الاقليم الا مرة واحدة أول
الشهر ، ولكنه لم ينقطع عن التردد على الحان ، يباعد بين الكأس
والكأس ، بالتنقل بين الموائد ، لا ليشرب على حسابنا ، بل ليحدثنا
عن نكبته فى هذه الزوجة المتلافة التى خبط عقلها ، تبعثر نقودها
على الغرباء - وأكثر قصادها من النصابين ! - وتبخل على
زوجها . .

واذا سمعنا بالنهار روايات الجيران عن عراقك جديد شديد
بين القزم وزوجه علمنا أننا سنشرب ليلتنا كوبا من الجعة على
حسابه .

٥ - زوج العرجاء

يتهمنى أصدقائي أنني جليس غير أنيس ، فأنا معهم اما مطرق
كأننى أعمى أتتصت الحديث لا أشارك فيه الا لماما ، وأما اذا رفعت
اليهم رأسى عقلت منى بوجوههم وعيونهم نظرة فاحصة متطلعة
ملحة يضيقون بها ضيقا شديدا ، فلا عجب أن كانت أكثر نظراتى
حائرة تائهة موزعة ذات الشمال وذات اليمين •

ووقعت نظرتى عرضا على النافذة فلمحت من خلالها شبح
العرجاء سائرة مجدة قد زمت شفيتها وقطبت حاجبيها ومال رأسها
على صدرها قليلا ، ساقها القصير يضرب الأرض بعزم وغضب ،
وما لبث باب الحان أن انشق على مصراعيه كأنما دفعته عاصفة
هوجاء •

ودخلت العرجاء تبحث عن زوجها ولعلها رآته هي أيضا من خلال النافذة في أقصى ركن من الحان ، فهذا مكانه المختار ، الذي يجب أن يجلس عنده اذا جاء الينا ، وهو لا يجيء الا نادرا ، ولكن العرجاء لا تريد أن تبحث عن زوجها فحسب ، بل تريد أن تخطب وتعظنا وتنهرنا وهي تعلم أنها اذا وضعت يدها على زوجها وسحبته فمشى وراءها طيعا ذليلا منكسر النظرة ستري الحان كله يعمه جو من المرح والفكاهة فتضيع مواعظها ولا ينفع فينا زجرها . لذلك انصرفت عن البحث عن زوجها ، وأخذت تتريث عند كل مائدة ، تنظر الى الجالسين وتهز كفيها في وجه رجل تعيب عليه شيبته الزرقاء ، وتلكم رجلا آخر لكمة خفيفة في صدره وتذكره باهماله لأمه المريضة العجوز ، وتكاد تلوى أذن شاب تعيره بكثرة ديونه وانفضاح أمره بين الناس . لم يفضب منها أحد واستخفوا بها لأنهم رأوا عيونها تضحك معهم أيضا ، كأنها ممثلة تقوم بدور يروق لها وأكثر ما يرضيها ويسرها أن تبرع في أدائه .

وصادفت صاحب الحان مقبلا الى النصب فهمت يدها تطبق على رقبته وأوشك ما يحمله من الأكواب أن يقع على الأرض . تقول له بلهجة فصيحة سليمة :

— أنت أصل الداء وسبب بلاء هذه القرية الطيبة ، أصبحت بفعلك مثار سخرية أهل المقاطعة كلها . ويح لك . ألا تستحي ؟ لقد كان الأجانب من قبل هم الذين يفتحون الحانات في ريفنا

فيفسدون عشيرتنا ويبتزون أموالهم بالخمر والربا ، ثم حمدنا الله
أن تخلصنا منهم ومن شرورهم وتفوذهم فما بالك وأنت من بلدنا
تحذو حذوهم في ضرر أهلك ، ألا ينهالك دينك عن هذا ؟ أم ليس
لك خلق أو حياء .. كوشون صالون أبو صير (١) « هكذا سمعنا
لفظها وأدركنا أنها تسبه أيضا بلغة أجنبية لا نعرفها ونحن أناس
على باب الله » فأجابها صاحب الحان :

— لا تكثري ! اننى لا أجبر أجدا على المجيء هنا ، وعندى
ما أقدمه للرواد من غير الخمر ، كالقهوة والشاي والطعام ان
أرادوا ، انما هم يهربون منك ومن أمثالك ، لا يعجيبك العجب ،
وليس وراءك الا النكد ، واذا كنت تحسبين اننى أجمع من
مهنتى هذه ثروة أحسد عليها فأنت تخطئين ، اننى لا أكاد أصيب
من هذه القرية المباركة ، الا ما يقيم الأود ..
قالت له وهى توجه كلامها لنا جميعا :

— ما معنى هجركم لتسائكم ؟ يعيش الرجال معا فى ناحية
والنساء معا فى ناحية أخرى ، وما أبشعها خطة لو تعلمون ، حتى
الحيوان لا يفعل هذا ! .

قال لها أحد الجالسين وهو يتسم بخبث :

(١) تعريفات لثلاث كلمات فرنسية الأولى Cochon ومعناها خنزير ،
والثانية لكلمة Salaud بمعنى قدر ؛ والثالثة لكلمة Abruti ومعناها مخبول
أو متوحش .

– اذن فتورتك ليست لأن الحان حلال علينا ، بل لأنه حرام
عليكن ! فهل يزول غضبك اذا أفسحنا لك مكانا بيننا ؟

– يقطع لسافك ، اننى أشرف من أن أخالط أوشابا مثلك .

لم تتمالك نفسها من الضحك ، كأنما أذهلتها جرأتها على
السب ، وافحام مهاجمها ، وتريث برهة مكانها وقد زال غضبها
وشملها جو الحان بأنسه وروائحہ ودفته ، وبدت عليها الحيرة ،
ورأينا وجهها ينطق بأنها ضاقت ذرعا بوحديثها وحديثها مع النساء ،
وانما ودت لو أمضت سهرتها معنا نحن الرجال نتحدث عن أشياء
غير العلل والأمراض وأثمان اللحم والخضار فيتاح لها أن تعرض
علينا ما عندها من حكمة وعلم وكل ما هي قادرة عليه من عبث
ومزاح برىء ، فانها تحب الضحك .

ومدت يدها فتناولت من احدى الموائد شيئا من نقل الخمر
وأخذت تأكله ، ثم تذكرت سبب مجيئها فأسرعت الى زوجها ،
وكان يكاد يختبئ تحت المائدة – وأمسكت به من يده وقد
احمر وجهه خجلا ، وخرجت تعرج وتجره ونحن نضحك ملء
أشداقنا .

اننى أعجب لهذه العرجاء ومصيرها، لا أعلم على وجه التحقيق
سيرتها ، ولكنى سمعت أنها من بنات العاصمة ، نشأت فى أسرة
معيلة رقيقة الحال ، وعاشت هى فى كنف قريب لها غنى تبناها

تخفيها من فاقة أسرتها وأملا في أن يجد في قربها وحنانها ما ينسيه
ألم الحرمان من إحدى زينتى الحياة ، زينة البنين ، اختارها من
بين اخوتها من أجل عاهتها التى أصيبت بها فى طفولتها ، فرق لها
قلبه وعطف عليها ، وأدخلها المدارس الراقية ونطق لسانها بلغتنا
الفصحى نطقا سليما وتعلمت فوقه لغة أجنبية أتقنتها كتابة وقراءة ،
ومرنت على شغل الابرة والحياكة وترتيب أثاث البيت بذوق
جميل ، فهى الآن على فقرها أنظف نساء القرية مسكنا وملبسا ،
ثيابها الرخيصة تنسجم عليها وتستريح لها العين ، ليس لنا مرجع
إلاها اذا تعطلت عند قرينتنا سيارة سياح من الأعاجم يكلموننا
بلسان لا نفهمه ، وهى التى تترجم لنا أيضا ما يصلنا بالبريد
أحيانا من أوراق ملونة مزوقة فنعلم أنها اعلانات بعض الشركات
الأجنبية فى العاصمة .

وكان المتوقع أن يوصى لها قريبا الغنى بوصية أو يوقف
عليها جل ماله . ولكنه أخذ يؤجل تنفيذ عزمه من يوم الى يوم ،
يكره أن يفكر فى موته أو يراه قريبا ، وكان الموت أسرع منه ،
فهو لا يحب الاستخفاف به ففضى نحيبه على حين غرة ، وطردها
ورثته ، أقرباؤه الأبعدون ، وكان لا يراهم ولا يرونه ، فخرجت
صفر اليدين ، وعادت الى أهلها وقد أصبحوا أكثر عيالا وأشد
فاقة .

أما زوجها فشاب من عشيرتنا ، أبوه من صغار الموظفين ،

عاد الى قريتنا بعد تقاعده ، ولا أدري أى جهد بذله هذا الرجل بالتقتير على نفسه وبيع بعض ما يملكه من حطام ، حتى استطاع أن يرسل ابنه للعاصمة لطلب العلم فى مدرسة الفنون والصنائع، وظل بعونه الى أن بلغ السنة الأخيرة وأوشك أن يتقدم للامتحان لينال الشهادة •

وكان الفتى يسكن بجوار أهل الفتاة • وتم اللقاء الأول بينهما بعد أيام قليلة من ارتدادها الى دار أسرتها ، ثم لم يمض أسبوع حتى عقد عليها وأرجأ زفافها اليه حتى ينال شهادته ويوظف •

وقال بعض حكماء قريتنا انها تزوجته لأنها كانت فى تلك الفترة من حياتها وبعد الضربة القاصمة التى أصابتها ، يائسة ، مبلبلة الذهن ، لا تأمل أن يرضى بعاهتها - بعد فقرها - شاب من الوسط الذى طردت منه ولأنها كانت وهى المثقفة المتمدينة المدللة ، تضيق ذرعا باكتظاظ منزل أسرتها القدر بعيال تعوط وتبول وتبكى وتصرخ طول الليل والنهار • فطلبت النجاة منه على أية صورة ، واستجابة لأول طلب ، ولو بدأت من أسفل السلم مع زوج فى منصب صغير اذا كان ينتظر له الرقى فى مستقبل الأيام ، فكان زواجها فى نظرهم نوعا من المخاطرة ان لم يكن من الانتحار •

وقالوا عن الشاب انه لم يكن يطمع فى أن يجد له زوجة

مثلها ، متعلمة ، مهذبة ، وأن الفقيرة بعد غنى هي نعم العروس
إذا حسنت أخلاقها ، فإذا ساءت كانت نقمة والعياذ بالله ، وقالوا
انه حين وآها تفوقه علما وثقافة وفهما ظن أنه فاز بصيد ثمين ،
وماذا يضره ، إذا تزوجها ثم لم يفلح الزواج ؟ أليس أمامه باب
الطلاق فسيح ، هكذا قالوا عنه فهو فى نظرهم نهاز ومقامر
أريب .

وقال بعض نساء القرية ان الفتى سحرها وزين لها
مستقبله وخبب لبها بوعود كثيرة لم تلبث الا أن تبددت هباء ،
والنساء هن ضحايا الرجال أبد الدهر . وقال شائئاتها : ثم ماذا ؟
عرجاء تزوجت من عاطل ، قد وقع النعل على الحافر .

وانى لا أقول عن العرجاء وزوجها ما قالوه ، معاذ الله ،
هما نعم الزوجين المتحابين ، ليست السعادة فى المال أو الجاه ،
بل فى توافق روحيين .

خبرت العرجاء وزوجها ، أدخل دارهما أحيانا فأعجب بهدوئه
وتحشمه ، وأصاحب زوجها أيام عطلتى فأجد فى صحبته أكبر
لذة ، وأستطيع أن أشهد أن زواجها - من قبل عشرين سنة - لم
يكن انتحارا أو قائما على الكذب والخداع والا لما دام الى اليوم ،
وانما هو الحب ، قد يقال اننى أنقل من بعض القصص الغرامية
وماذا أفعل إذا كانت القلوب قد فقدت اليوم ايمانها بالحب
وبهائه ؟ والحياة مع ذلك لا تخلو منه وان أصبح الحب لا يولد

ولا يشق طريقه الا وسط الشكوك والريب ، ولكن الذى كان
بينهما هو هذا ! سأرويهِ كما حدث لأننى أكره الخداع •

كان صاحبنا حينئذ فتى فى ميعة الصبا ، له روح صافية
بريئة ، وجسم أشرب ماء الحياة ، تحسبه من مطاط متين النسيج ،
لا تحطبه الصدمات ، كأنما خلق له القفز والجري ، كل حركة
منه لفنة رشيقة جديرة بأن يخلدها مثال عبقرى ، له يد غير مترفة
إذا صافحتها أحسست بصدقه وإخلاصه فهى بعض قلبه ، ووجه
حر أشم العرنين (١) زاده الاسرار بهاء ، هو فى أية ساعة رأيت
تجدّه كأنه قادم لتوه من نزهة طويلة فى الحقول ، غسلته الشمس
ورقصه النسيم ، كما تفعل الأم بصبيها ، تحميه وتدله ، له نظرة
تطالعك لا تنكسر ولا تراوغ • تنبعث من عينين تموجان بالمرح
والبشر ، لا ترهبه الحياة فهى أمامه متعة صافية ، لا يحول دونها
عائق ، ما ظل فى الطريق الحلال •

أما هى فكانت بالليل تنام فى فراش من حرير تهدهدها يد
العز فيمضى نوما هنيئا تحدوه أحلام جميلة ، وبالنهار تتفتح فنتتها
كالزهرة يندبها التجبب اليها ويؤرجها مقدرتها الموهوبة لها من
عند الله سبحانه على اسعاد الغير ، إذا لم تلبث ابتسامتها على

(١) عرنين الأنف تحت مجتمع الحاجبين ، وهو اول الأنف حيث يكون فيه
الشم •

شفتيها الا قليلا فانها تمكث في القلوب كثيرا . حتى كادت تنسى
عاهتها .

ثم اذا بها تستيقظ فجأة ، تسقط من شاهق على ساقها
الأعرج ، وتتحول من الاعزاز بين السعداء الى الضياع وسط
المهزومين ، ومن الغنى العريض الى الفقر المدقع ، وهي عاجزة
عن السعى ، يحدث لها هذا دون ذنب جنته ، كان خيرا لها ألف
مرة لو تركت في فقرها الأول فهي لم تطلب الغنى حتى يقال عن
هبوطها انه عقاب الطمع ، بل الغنى هو الذى حط عليها وخطفها
— كما تفعل الحدأة بصغار الفراريج — حتى اذا علا بها تخلى عنها
وتركها تهوى الى الأرض .

وأدركت العرجاء أن الحياة أم لها ثديان أحدهما وجود
بالعسل واللبن ، والآخر ينضح بالمر والعلقم ، وأن من طبع هذه
الأم — لحكمة لا نعلمها — أن تنقل بعض أبنائها من ثدى الى
ثدى . ولو مرت تجربة العرجاء برجال أشداء عركوا الحياة
واستخفوا بالجهاد لزلزلوا لها زلزالا شديدا ، فمنهم من يتحطم ،
ومنهم من يذوى على مهل ، وتمضى محنتهم مثلا ترويه الألسن
وتتناقله .

ولكنها لم تتحطم ، وانى والله بها لفخور ، بل كانت كالعطر
المبدول يصفى على النار فيستخلص جوهره الكريم ، أصبحت
تدرك نشوة الكرامة ومعنى رفع الرأس ، وتفهم أن عاهات البدن

— مهما أوغلت — هفوات أحداث عابثة لا تخدش الروح ، وأن الحياة التي كانت حولها جميلة ، نائمة ، هي الآن حولها جميلة متوثبة •

ووقعت نظرتها على جارها الشاب فشعرت بروحه الصافية وجسمه السليم ، ووقعت نظرتة على جارتة فأحس معدنها المصقول وأنها ان شاءها فهي عصا خيزرانة تتشنى ، وان شاءها فهي عكاز من حديد • ولكن لم اللف والدوران ؟ لماذا لا أقول فى كلمتين انه أحبها وانها أحبته ، وآمن الاثنان أنهما اذا تقاسما الحياة كملت لهما ، تعلم أنه ريفى فقير ، ويدرك هو أن قسمتها فى الحياة عرجاء •

ورضيا بالحياة كما هي • ولكن هل تظن أن الحياة رضيت بهما كما هما ؟ ان لها فى بعض الأحيان نزوات لا تفهمها وعناد يغيظ اذا لا ينفع فيه شيء يسمى منطق البشر وهو كل ما لدينا ••

خرج الشاب ذات صباح من داره ليذهب الى المدرسة فاذا دروب العاصمة تموج بحشد غفير من المتظاهرين ، هم أخلاط وأشتات جمعهم الهتاف بسقوط الحكومة • لا أذكر الحادثة التي أثارتهم ، فما أكثر ما سمعنا من أبناء هذه المظاهرات حتى ألفناها لتشابها وعقمها وأصبحنا لا نأبه بها • أعتقد أن الحادثة ترجع الى تناحر حزبى على مقاعد الحكم ، ونزاع بين زعيمين هو فى

أغلب الأمر تنافر بين مزاجين لا يرقى الى مرتبة الخلاف بين رأيين واستطاع الحزب المعارض أن يلبس أطماعه فى الحكم ثوب الدفاع عن حقوق الشعب وحرية ، وانساق بعض الناس وراءه ، بعضهم تطوعا ، فما أسرع أهلنا الى الحماس والهباج ، وبعضهم طمعا فى تحقيق مصالحهم الذاتية اذا تغيرت الحكومة ، وشعبا - كبقية الشعوب - لا يخلو من المنافقين ، ولعل كثرة المتظاهرين لا يريدون نصره الحزب المعارض بقدر ما يريدون الجهر بضيقهم من متاع العيش لا يستطيعون القاء مسئوليتها الا على رأس الحكومة ، أيا كانت .

وكان صاحبنا لا يحب السياسة ولا يناصر حزبا على حزب ، ويكره الخصام والجدال . هدفه الأوحى أن ينهى دراسته .

وأخذ يتطلع الى وجوه المتظاهرين بشىء من الرثاء والسخرية والفكاهة ، هذا العامل الفقير الممزق الجلباب انما يلهو ويعبث حين يقلد قائد المظاهرة ويردد وراءه هتافاته المسجوعة ، وهذا الأفندى يتصبب عرقا وسط الزحام ، لم وفيم يزج نفسه فى هذا المأزق ؟

وانصرف عن المظاهرة يقول :

- هى حكومة تريد أن تتشبث بمقاعد الحكم ما أمكنها ، وجماعة من العاطلين المتهوسين لا ينتبهون الى أنهم ألعوبة فى

يد ساسة من المكرة الدهاة • انه ليس مثلهم غرا تنطلى عليه حماسة
قائد المظاهرة ، ان قلبه يحدثه بأن الرجل مأجور ، وهذا الخطيب
المفوه له صورة الذئب ، يهدر صوته كالرعد دفاعا عن الوطن
والشعب المسكين ، انما هو جاسوس يتقاضى من العدو مرتبا
كبيرا كل شهر •

ووصل الى المدرسة فراعه أنها محاطة بعدد كبير من الجنود
على رؤوسهم خوذ كريهة اللون ، يحمل بعضهم البنادق ، وبعضهم
العصى الغلاظ •

ورأى زملاءه الطلبة قد لاذوا بسطح المدرسة اتخذوه حصنا
يقذفون منه على الجنود حطام أثاث مدرستهم — يا للحماسة ! —
يتلفون أموالهم بأيديهم !

زجره جندي وأغلظ له ، فابتعد عنه ، ووقف بجانب الباب
حائرا يقول لنفسه « أين أذهب ؟ هذا يوم آخر من أيام الدراسة
يضيع هباء » •

وهم أن ينصرف ، فاذا بحجر يصيب رأس قائد الجند
واذا بهم يندفعون جميعا نحو الباب فيجد نفسه محمولا وسط
التيار يصعد معهم سلم المدرسة ولكنه تخلف عنهم فى الطابق
الأول ومضوا هم الى السطح •

وسار فى الدهليز متجها الى فصله ليرى من بقى فيه من

زملائه ومر أمام المرحاض فرأى رفيقا له مختبئا وراء بابه هو صبي نحيل ضعيف مسالم يكره العنف والضجة ، فقال له « لماذا تختبئ هنا ؟ الموقعة دائرة على السطح فتعال معي الى الفصل . هو الذى جره وأخرجه والصبي يقول له « تحسن صنعا أنت لو اختبأت مثلى فى المرحاض »

لم يكذ يسير بزميله خطوتين حتى أطبقت عليهما زمرة من الجند ورأى واحدا منهم يرفع عصاه الغليظة ليهوى بها . لم ينس الى الآن وجه هذا الجندي ينطق بالقسوة البالغة والكره الشديد ، هو وحش كاسر يلذ له أن يلغ فى الدم ، وقبل أن يقول له الشاب « تريث ! لا شأن لنا بما حدث ! انتظر ! اسألنا سؤالا واحدا نجيبك بما يريحك ! » هوت العصا الغليظة بقوة على رأس زميله المسكين ، والضعيف هو الذى يتلقى الضربات حتى غير المقصودة منها ! فوقع على الأرض وتفجرت الدماء من جروحه .

انكفاً عليه لحظة ثم قام هائجا وأمسك بتلابيب الجندي ولكن بقية الجند ضربوه بكعوب بنادقهم وجروه الى سيارة السجن وقذفوه فيها مع نفر من زملائه .

وفى اليوم التالى علم أن رفيقه المسكين لم يستفق من ضربته حتى مات بعد ساعات قليلة ، وان الحكومة أمرت بدفن جثمانه سرا خوفا من أن تقام له جنازة تنقلب مظاهرة أخرى .

اذا ذكر الى اليوم وجه الجندي فانه نسي السجن وليلته
فيه نسيانا تاما ، اذ كان ذهنه مشغولا بمسألة تهز كيانه هزا
عنيفا . كان بالأمس لا شأن له بالمظاهرة وأسبابها ولكنه اليوم
يدرك معنى الظلم بل يعتقد - وهنا الخطر - أن هناك من المظالم
ما لا يمكن دفعه الا بمثل قسوتها . انه لا يريد أن يناصر حزبا ،
أو يدافع عن رأى ولكن لا مفر له من أن يثور فى وجه الظلم
أيا كان ، يا للهول والخسة والجبن ! يقتل صبي غريب بلا
جريرة على يد واحد من مواطنيه لماذا ؟ من قال بهذا ؟ وكيف
يمكن الاقتصاص من هذا الجندي وهو آخر الأمر حلقة نسي
سلسلة طويلة لا يعلم أولها من آخرها .

ان فعلة الجندي دليل على أن هناك خلافا فى جهاز الحكومة
بل يدل - يا للنكبة الكبرى - على أن هناك خلافا فى كيان
الامة كلها . وما كان هذا الجندي يقدم على فعلته لولا احساسه
بأن نفوس رؤسائه أشد استهانة منه بكرامة الشعب ، وأنه عبر
بضربته عن خبايا نفوسهم .

وأنت صاحبنا أن يعيش بلا كرامة ، مهدور الانسانية حقيرا
ذليلا . . . ولما عاد للدراسة كان أكثر الطلبة مشاغبة وهياجا ، لم
يترك مظاهرة واحدة دون أن يسير فى مقدمتها يحطم الترام
ومصاييح الطرق بلدة كبيرة . وفصلته المدرسة ، وحرمت
عليه الحكومة دخول كافة معاهد العلم فى القطر كله .

وكتب له أبوه : « يا ابني ! مادمت لم تفلح فى المدارس
فعد الى بلدك تفتح لك دكانا ترتزق منه فأنت على قولك تعلمت
أصول النجارة والبرادة والسباكة » .

وسار بهذا الكتاب متهلل الوجه الى صاحبه وقال لها :

ـ ليس لنا عيش فى العاصمة ، فسيظل البوليس يتبعنى ،
ويلقىنى فى السجن كلما طرأت أزمة ، فلا يشفينى الا البعد عن
هذه المتاعب وأن أعيش فى الريف حرا ، ناجيا من الظلم البين
والاستبداد . فهل تقوين على سكنى الريف معى ؟

فقلت له :

ـ أنا معك أينما كنت . فى السراء والضراء .
ولم تفصح له عما قاله قلبها أيضا :
ـ وسأعينك بشغل يدي .

وفتح الشاب بمساعدة أبيه دكانا للنجارة لأنها أنظف من
السباكة وأخف مشقة من البرادة ، وبدأت العرجاء تخط بذوق
جميل لقاء أجر قليل ثياب بعض الموسرات من نساء القرية ،
وأقاما لهما دارا متواضعة هيئة وأثاثا ، ولكن يكفيها أن الحب
يرفرف عليها ، وكان الظن أن الدنيا رضيت بهما على صورتها
الجديدة ، ولكن لا .

ان ثورة الشباب على الظلم انقلبت عشقا مولها بالحرية

وكرها عميقا لكل قيد ، مهما كان هذا القيد . وأنف الشاب أن يحتفظ بزى أهل المدن وأبى أن يرتدى زى الفلاحين ، لأن الرأي العام فى بلدنا سيرى - يا للأسف والعجب . أن فى ارتدائه لزي قومه حطة وتدهورا ، فاتخذ له زيا وسطا ، بلا طربوش أو قميص أو ربطة عنق ، بل اكتفى بسرwal متسع عليه صدرية من الصوف من شغل زوجه .

وكان دكانه فى أطراف القرية ، تمر أمامه ترعة صغيرة عليها جسر من جذوع الشجر يصلح لمرور الناس والدواب ، لا العربات والسيارات ، ووراء هذا الجسر حقول ممتدة الى نهاية النظر تقوم فيها هنا وهناك أشجار ريفنا ، وهى أشجار وارفة الظلال، عليها وداعة الشيوخوخة وازورارها من زحمة الحياة ومتاعبها ومشاغلها ، تتدلى أغصانها فوق ساقية ان كانت على جسر التربة وأما اذا قامت وسط الحقل فما أبرد ظلالها عند الظهيرة للفلاح المتعب وجاموسه النحيل . . وهذه التربة العكرة التى تمر أمام دكانه تبدو لها من بعيد أخت لها براءة كالفضة .

استحوذ سلام الحقول على لب الفتى فأخذ يهمل دكانه ويعبر الجسر الى أرض الله الواسعة ، لا تصل الى آذانه ضجة أو ضوضاء يسير بجانب المصارف يتأمل الزرع ويقف أمام الحيوان كأنه يراه أول مرة .

هذه الجاموسة - جلدها كذوب الطين - لاتزال رغم طول

عشرتها لنا تحلم بموطنها الأول - منابع نهرنا العظيم ، وهذه البقرة فى أحسن اهاب عليها هالة من قداسة وان نسى الناس عبادتها ، وهذا الجمل ، سيد متكبر هبط علينا من كوكب آخر ، فلا شبه بينه وبين بقية حيوان هذه الدنيا - اذا استناخه (١) صاحبه أرغى وأزبد ، ثم انهد طبقة بعد طبقة ، وظلت رقبتة تمتد بعجرفة من وسط خرائيه ، أما الماعز المتوثبة النزقة فأغلب الأمر أنه يسمع مأماتها قبل أن يرى قرونها الخروبية •

وكان اذا قابل فى تجواله فلاحا عند ساقية جلس اليه وأكل من طعامه ، ولربما أصلح له ساقيته متطوعا ، بلا أجر ، أو ان قبل مكافأة أخذها جينا ومشا وبتاوا (٢) •• وبعد قليل شاهده الناس يخرج الى الحقول وفى يده غابة وشص (٣) ، ويجلس الى الترع والمصارف يصطاد السمك ، ثم رأوه بعد ذلك يخرج بيندقية ولا تدرى من أين جاءتة ؟ - ويظل يراقب الطيور ويتشممها ، وحينئذ هدأت روحه وسكنت ثورتها •

وأفلس دكان النجارة ، وكان عذره أن العمل قليل ، ونسى أننا كنا نطليه فلا نجده ، وأن العمل الذى فكلفه به وتنظن أنه ينقضى فى يوم يظل فى دكانه أساييع وشهورا ، ولست أنكر

(١) انخت الجمل فاستناخ أى ابركته فبرك •

(٢) خبز رقيق مستدير مقدد يصنع فى الصعيد والشرقية من القمح والحلباء •

(٣) حديدة معقوفة يصاد بها السمك (سنارة) •

أنا ما طلبناه مرة لصنع خشبة لميت الا وجدناه فى دكانه ولا
أدرى كيف ؟ ويعدها الناس من كرامات الميت ، وكم للموتى عندنا
من كرامات •

وقيل له « اذا لم تفلح فى النجارة فعليك بالسباكة ، فان
أهل القرية فى حاجة دائمة لمن يصنع لهم مواقد البترول وكذلك
تجار المسلى فى حاجة لمن يلحم صفتهم ، ولكن مآل دكان
السباك لم يكن خيرا من مآل النجار ، وأفلس الشاب مرة ثانية •
ثم استمر زما يعمل كبراد ، فجاءه أصحاب آلات الحراث
والرى - وكان لا يطالبهم أن يأتوا الى دكانه بما يريدون اصلاحه
بل كان يذهب هو اليهم - هى ذريعة يتصيدا ليقضى نهاره
فى الحقول وقد تمتد جولته الى قرية أخرى ويغيب فيها يوما أو
يومين ودكانه مغلق ، والناس تبحث عنه فلا عجب أن أفلس
للمرة الثالثة •

وكانت العرجاء هى التى تصرف على البيت من مكسبها ،
وكان الزمن قد قسى عليها • فالعلة التى أصابتها فى طفولتها
وسببت لها عاقتها ، داء يكمن كالسم الخبيث فى الجهاز العصبى
ويتلفه شيئا فشيئا وأخذنا نلاحظ عليها - فى العهد الذى أتحدث
عنه - هزات عجيبة تلوى يدها اذا تحدثت ، وتقلب مشيتها
العرجاء الى نوع من الرقص المتراوح شمالا ويمينا • ولا أدرى
هل انحلت أم يبست بعض عضلات وجهها اذ أصبحنا حين نراها

فى أوقات غضبها لا نعرف هل هى ضاحكة أم باكية ، واستقل كل حاجب عن أخيه فى حركته ، وكأنما اتسع جفناها عن حدقتيها أو ضاقت عنهما عيناها فأصبحت ابرأ نظراتها نظرة شاخصة محمقة ينقبض لها صدر محدثها • وغلب عليها نوع من السداجة ، لا تسلكها بين المرضى لأنها لا تبلغ درجة البلاهة ولكن جعلت أهل القرية يقولون عنها ان فيها شيئا لله • وزاد عطفهم عليها ومحبتهم لها ، فلم ينقطع رزقها من عمل يديها •

ولا تحسبن أن أهل القرية تنكروا لهذا الشاب ونعوا عليه حماقته وأفن رأيه وسوء تديره ، فان له ابتسامة تमित النقد من قبل أن تنطق به الشفتان ، بل من قبل أن ينخر كالسوس فى القلب، وادركوا أخيرا - وهم لا يعلمون كيف حطمت حادثة صديقه المسكين روحه - أن لا علاج له ، وأنه طفل فى ثياب رجل ، لا يزال يحب الجرى والقفز - ومن منا لا يحب الأطفال ؟

وفتح له أهل القرية جميعا مع قلوبهم بيوتهم اكراما له ولزوجته العرجاء ، يدخلها حتى فى غيبة رجالها ، فما رأى شيئا تالفا الا تطوع لاصلاحه ، من تقويم السقف وإيقافه عند حده، أو اسكات الصنبور الثرثار، الى تأديب الرتاج (١) ليسحب لسانه الطويل •• وهكذا •

قلما ندفع له مالا فهو لا يسألنا شيئا ، ولأن العرف جرى أن

(١) المزلاج أو « الترياس » •

العاطل لا أجر له ، ولكنه كان أحيانا يشاركنا طعامنا وشرابنا
ولهونا ، ويحب فى بعض الليالى أن يجلس إلينا فى الحبان
يروى لنا آخر اتصاراته - والله أعلم بالمبالغة - وقلما برأ منها
صياد - فى صيد البر والبحر •

ولا أنسى الى اليوم حيرة العمدة حينما وصلنا من العاصمة
استمارة طويلة عريضة وأريد منه أن يبين فيها مهن أهل القرية
صنفا صنفا وعدد العاطلين وسبب عطلهم ، وهل هو موسمى ، أو
على مدار السنة ، والعمدة لا يؤمن بفائدة هذه الاستمارات ولكنه
مكلف بأن يسد الخانة •• فحك رأسه ودارت نظرتة حول
جلسائه ، وتردد برهة ، ثم سأل الله المغفرة وكتب اسم زوج
العرجاء فى خانة العاطلين وذكّر أمامه أنه عاطل على مدار السنة،
ثم أبى أن يضيف عليه اسما آخر ، لأنه أتف أن يصف بالمتعطلين
بعض أهل بلده وكلهم يسعى ويكد فى طلب الرزق ، فليس من
العدل وان لم يصيبوا من دنياهم سوى الكفاف أو أقل من
الكفاف - ان يسجل فى أوراق رسمية أنهم من العاطلين ، والذنب
ليس ذنبهم •

ولو كان للحكومة نفس تحس وتشعر لأضافت الى الاستمارة
خانة جديدة تسأل فيها عن العاطل هل هو سعيد أم غير سعيد
فانها لو فعلت لكتب فيها العمدة باتفاقنا جميعا أمام اسم زوج
العرجاء :

- سعيد جدا •

٦ - الفتى الفنان

مضى نصف الليل أو كاد ، وانصرف عن الحان غير المحنكين
على الشراب • بعد أن أصابوا ما أتوا من أجله ، كأن قدومهم
للحان أداء لوظيفة • • وخلص لها زوارها العتاق ، عشاق الليل ،
هم بطانته ومريدوه ، يؤذيهـم النهار بضوئه الساطع ورؤيتهم
للمخلوقات من حى وجماد فى صورة فجة ، أفصحت قساماتها
فعریت وتیدد سحرها ، كأنها جميعا من مرتزقة الجند ، يساقون
الى معركة لا يعرفون مكانهم فيها • شجاعتهم غير منبعثة من
القلب ، بل هى من أثر التدافع وانعكاس وميض السلاح على
الوجوه ، فلا عجب ان خالطها الألم واقترنت باعياء يحاولون ستره
فلا يخفى ، أما أهل الليل فهم الذين لا يرفعون أصواتهم ، حديثهم
نجوى ، يسمعون همس المخلوقات — ما غفل منها وما لم يغفل

— بأسرارها وجمالها وأوهامها وأوجاعها وتسييحها لباريء الكون.
الليل عندهم رقة وصفاء وسلام ، بين كل نجم وقلوبهم شعاع
متصل .

هبطت الضجة ، وفرغ كل جالس لنفسه وهو راض عنها،
فقد استرخت وكفت عن النفر ، وخال أنه أرقد طفلا ، وأن الحان
مهده ، وان سكره من فعل يد رقيقة تهز له المهد وتهدهده لينسى
.. وبدأ صاحب الحان يجود علينا وهو سعيد بأعز ما عنده من
شراب يضمن به على غيرنا .

ولكن اعتكاف الروح لم يدم طويلا فهي ظامئة أبدا الى
جديد تريد أن تأخذ بنهم لتعطى باسراف ، وليست السعادة في
الثروة مهما بلغت اذا ركبت ، بل في تجددها وان قلت . لذلك
انبعثت فينا نشوة حلوة وملأنا البشر جميعا حينما رأينا الفتى
الفنان يدخل علينا كأنه هب النسيم العليل ، وفي يده الكمان .
وتفرقت حلقات الموائد وتجمعت حوله وأصبح هو سيد
المكان وواسطة العقد فالصدارة حق الفنان أينما حل .

هذا الفتى أبوه أغنى تجار الجيوب في قريتنا ، ليس له ولد
غيره ، يدخل مخازنه ، ويسافر للأسواق وهو مطمئن النفس
صادق النظرة والحساب لعلمه أن وراءه ابنه يحل محله ويقوم

مجده اذا أقعده المرض أو خطفه الموت • ودفع ابنه للمدارس حتى نال الشهادة الثانوية جذبه لمتجسره وأمره أن يلزمه كظله وأن يصحبه فى أسفاره آملا بذلك أن يشتد عود الصبى ، ويألف المشقة والصبر ، ويفهم أسرار التجارة ، فهى عنده لا تستقى من الكتب ، بل تكتسب بالممارسة والمران •

ولكن أمر الفتى عجيب ، انه يضيق ذرعا بمهنة أبيه ، ويكرهه أن يلح على الفلاح لينقص له من ثمن قمحه مليما أو مليمين ، ويكره المال ورأس المال والجمع والطرح ، والتاجر عنده - وكثير من الأبناء يسبون آباءهم فى قلوبهم وهم لا يشعرون - اما رجل متمت منطو على نفسه مكابر يظن أنه يقرأ الغيب ، واما مقاتل لا يمسه قانون أو رحمة •

لم يفهم شيئا من أسرار التجارة ، ولم يفلح عمل واحد تولاه مستقلا عن أبيه ، فماله هو ولهذا كله ، ان روحه تهتز بأصوات خفية تتسرب اليه من كل مكان وجهة ، اذا جلس فى الدكان تلتقت أذنه صوت مطرقة الحداد ووقع حوافر الجواد فى المشى والعدو، صرير الباب له فى قلبه صدى ومعنى • فاذا خرج للأسواق فى صحبة أبيه جار لا يدرى أى الأصوات أولى باقتباهه • حفيف الشجر ، وخرير الماء وعويل الريح ، وخشخشة أعواد الذرة اذا ضربها الهواء ، حتى الطير وهو يحوم فى السماء يصبح عنده نغما ناطقا ، وفوق كل هذا أصوات تحدثه بها نفسه ، وكأنها

خزانة ملأى بالماس والبروق ، باللؤلؤ وقطر الندى ، بالياقوت
وجرح الحب ، بالزمرد واطمئنان النيل الأصيل ، كلها تريد أن
تنطق على شفثيه ، وأن ترى النور من خلال عينيه •

سجل فى قرارة قلبه جميع نداءات الباعة ، وأغانينا الشعبية
ومواويلنا الحمر ، تلتقط أذنه وسط الضجة هتاف الفلاح لفلاح
آخر يفصلهما نهرنا العريض فيهتز له قلبه ، يكفيه أن يسمع مرة
واحدة دورا أو أغنية حتى تخلد فى روجه ، وأصبح اذا جلس
فى الدكان يحسبه الرائي غائب الذهن لا يشعر بما حوله فنظرته
مثبتة فى الفضاء الى بعيد وشفثاه تصفران بصوت خافت ،
وأصابعه تنقر على ركبته ويتمتم كأنما يلوك علكا: (١) لذيذا
لزجا •

وكنت اذا رأيته على هذه الحال أعجب لنظرته ،
أحس فى عامة الناس أن فى رءوسهم من وراء أعينهم سدا تصل
اليه المرئيات فيصدها الى حيث أتت وتنطق بها العينان ، وهناك
رءوس خلت من هذا السد لأنها متصلة بأسرار الكون ، فتمر
المرئيات بالعيون ثم تهوى فى فضاء سخيخ ولا تعود - هى
عيون الحيوان والفتانين الحالمين وبعض المجانين •

وأخذ الأب يراقب ابنه ، يرتجف قلبه اشفاقا عليه ، ان

(١) ضرب من سمغ الشجر كاللبان يمضغ فلا يذوب •

أكبر ما يسره أن يرى ابنه فى الدكان ، كأنما يستعيد هو ذكرى شبابه حين قذف به فى الحياة مبكرا ليكسب رزقه ، لم ينصحه ناصح أو يبصره خبير ، ومع ذلك فقلب الأب لا يغبط الابن على حظه ، ان أكبر سعادته أن يحوطه بعنايته ، ويمهد له السبيل ، ويجنبه المآزق ، ويقوده برفق فهل تضيع كل هذه الجهود عبثا؟ هل ينهار البناء بعد أن أقيم بصبر حجرا على حجر ؟ واذا أبوه يفاجئه فى يوم بسؤال :

— ماذا تريد أن تفعل بنفسك فى هذه الدنيا ؟

صمت الشاب خجلا ، ثم رفع رأسه وقال :

— أريد أن أكون ملحنا ، فهذا ما خلقت له وجبت عليه •
كأنما طعن قلب الرجل بسكين •

— وهل هذه المهنة ، ان شئت أن تسمى التلحين مهنة —
توفر لك رزقا لا أقول فسيحا ، بل رزقا يكفيك ذل الحاجة
أو الفساقة ؟

— لا أدرى • لم أفكر فى ذلك فأنا مسير لا مخير ولو
استطعت أن أصم أذنى عن الأنعام لفعلت ، اكراما لك ، فانتى
أود أن أكون لك طيعا لا عصيا •

— يا بنى انتى لا أطلب منك جزاء ، وكل ما أريده لك أن

تكون رجلا فالحا • والرجولة لا تكمل الا اذا قمت بواجبك
وأديت عملا فيه نفع للناس. وعمران للأرض وتكثير للرزق •••
موسيقى؟ تستطيع الدنيا أن تعيش في رغد بلا موسيقى، ولكن
لا تستطيع أن تعيش يوما واحدا بلا خبز • يا بني ان الانسان
لم يخلق عبثا، خلق للجهاد لا للأحلام فأنت ترى الطفل يولد قد
ضم يديه ورفس برجليه، وبكاؤه تحذير بأنه مقبل يشق طريقه
بعزم في معترك الحياة • بذتلك هل رأيت طفلا يولد وهو
يدندن؟ ••

أطرق الفتى وقد تندى جبينه ولم يجب • وأدرك أبوه أن
كل جهد عبث • وليس في الحياة ألم أشد من ألم الأب حين
يرى كل ما يبذله لابنه من محبة وعناية كأنه نفخ في قربة مقطوعة
فغضب عليه، وأقصاه من مجلسه وقتر عليه المال •

وانضم أكثر أهل القرية للأب وازدروا بالفتى وأهوائه وعد
عندهم أحق مآفونا • أما نحن رواد الحان فهو عندنا عزيز أثير،
نحبه من كل قلوبنا، ولا تمنعنا الأثرة من أن نرجو أن يتاخ له
السفر للعاصمة ليتزود من العلم ويشتهر بين الناس، ونعجب لهذه
السعادة البينة التي تغمر روحه ووجهه، رغم ما يلقاه من عنت
أبيه وسوء ظن عشيرته • وكان يقول لي :

— مسائل الأكل والشرب هيئة، وليس هناك انسان يموت

جوعاً أو ظمأ ، وانما هي الأطماع ، وليس لي مطمع في ثراء أو
بذخ ، بل سعادتي أن أعيش حراً لنفسي طليقاً ، وأن أعبر بالحناني
عن كل ما أسمع وأحس به ، وأنا واثق بأنني سأسعد كثيراً من
الناس ، ولو حيل بيني وبين الموسيقى لتحطمت روحي ، ولعل
اندفاعي مبعثه انني أحب أيضاً أهل بلدي اذ أشعر أن عندي
شيئاً أريد أن أقوله لهم ، وأنا ضيق الصدر بأغانيهم هذه الأيام،
كلما سمعتها نبض عرق الحياء في جيني • انني أتأفف من تلك
الأغاني المبتذلة الخليعة كأنها صدى لفراش عاهرة ، كيف تدخل
هذه الأغاني بيوتنا وتجري على السنة أطفالنا ؟ هذه نكبة ؟
سمعت كثيراً وصف أدواء هذا الوطن وترتيبها أما عندي فهي :
الأغاني الخليعة ، والفقر والجهل والمرض • نعم ، انني أضع
الأغاني الخليعة في رأس القائمة •

واذا سألت كيف يجيء هذا الفتى للحنان أجبتك أنه لا يجب
الخمير ولا يشربها ، ان روحه كجواد أصيل يعاف السوط ويكره
أن تكون بدائع الفن وليدة عقدة نفسية أو حرمان جنسي
أو أبخرة الخمير ووهم المخدرات ، فكل تتاجها سراب خادع ، قد
يبرق ، وقد يرتوي عليه الضال ، اذا خبطه الهديان •• ولكن
صدقه نفاق ، وعمره هباء ووجوده زوال •

ولما دخل الحان وتجمعنا حوله نظر الينا وقال :

– دافع خفي يسوقني اليكم فأنا أحب مجلسكم وأحب

جو الحان ، كما هو رغم ما يخالطه من رائحة مرحاضكم يتبادل عليه شاربو البجعة منكم ، اننى أحس هنا بالدفء والحياة ، كما أحس بها وسط الحقول وبين الأزهار ، ان الساعات التى أقضيها معكم تلهمنى أحسن ألحانى وأتم كل مالى من أصدقاء فى قريننا سامحها الله •

قال له صاحب الحان بابتسامة خبيثة :

— ولماذا لا تعترف بأنك تبحث أيضا من جمهور يسمع ألحانك وأنت ضامن وده ؟ فلا أظن الالهام يدوم طويلا اذا لم يتصل الفنان بالناس وتجمعهما تلك المجاوبة الروحية التى هى قوام كل نتاج فنى وهدفه ؟

— قال له الفتى :

— يا جاهل ! اننى ألحن أولا لنفسى ، واننى كريم أحب الناس فليس أشهى على قلبى من أن أشركهم فى تذوق كل جمال وهبته •• ماذا تريدون أن أعزف لكم الليلة ؟

قال له القصاب :

— اسمعنا أولا من القسديم حتى اذا أسلكت أنغامه فى آذاننا ورسبت فى قلوبنا دخلت بنا فى الجديد من ألحانك اذ نصبح أكثر فهما لها وأسرع احساسا بالفرق بين الاثنين •

فقاطعه القزم قائلاً كأنه خير بالفنون جميعها :

— اتركه لمزاجه ، ان الفنان لا يؤمر •

وأخذ الفتى يعزف لنا من القديم ألحانا وتقاسيم تشرت
بها نفوسنا في لهفة ، تذكرنا بها آباءنا وأجدادنا ، وبسطة
حياتهم ، وماضى عزنا القديم ، ولكن نفوسنا كانت كقطعة
الاسفنج ، سريعة الامتصاص ، سريعة الارتواء •

هذه الموسيقى عبث صبي يرسم بعصاه على الرمل أشكالا
هندسية متداخلة متشابكة متكررة لا يعرف لها أول من آخر،
ولا مبدأ أو نهاية ، اذ ليس لديها ما تقوله ، والعجيب أن هذه
الأنغام الضحلة تهصر قلوبنا بمقدرتها الشيطانية على إثارة الحزن
والأسى والتفجع ، ولا بأس بها ان فعلت ذلك لو انتقلت الى فتح
باب الأمل والبهجة ، ولكنها تلح في الأنين وتبالغ فيه ، حتى يبلغ
درجة التمزق والانهار ، وخليق بالمرأة اذا سمعتها أن تلمم خديها
وتشق جيوبها ، وبالرجل أن يحس بأنه يغوص في بئر عميق مظلم
يرميه فيه قدر قاس لا يرحم ، لا مفر منه ، لا يقابل الا بالاذعان،
وكل جهد في مقاومته ضائع هباء ، وليس لسامع هذه الموسيقى
اذا أراد أن يعبر عن استحسانه لها الا أن يتأوه ويتفجع •• واذا
مالت الى البهجة ، لم تجد الا أنغام « النقر وتلعيب الحواجب »
وترقيص القروود •

وليس من العجيب أن تسرى بالعدوى ضالة هذه الموسيقى
الصيانية الى الكمان ذاتها، وهى الآلة الموسيقية التى تضم الأنغام
جميعها ، فهى فى يد العازف من أهلنا لا تزيد عن ربابة من وتر
واحد . اننى أرى الكمان حينئذ كالمرأة الحرة الشريفة حكم
عليها الزمان فأصبحت مومسا .

وقال الفتى بعد قليل :

— يكفيكم هذا واسمعوا الآن شيئا جديدا .

وعزف لنا ألحانا ليس فيها الاعيب البهلوان أو رقص القروذ
أو دقة الزار ، بل أجبرنا أن نصمت وتأمل ، وشعرنا بسعادة
كبرى تعمر نفوسنا ، وخال لنا أن الدنيا مذ خلقت والى إن تبنى
دنيا جميلة ليس فيها خبث أو نكر ، وان للانسان مطلباً أسمى
من حاجات دنياه ، واعتزم كل منا فى قرارة نفسه أن يكون من
غد أطهر قلبا وأعف يدا ولسانا وأكثر مودة للأهل والناس .

وبعد أن فرغ الفتى نظر الينا وقال ، كأنه نسى ما عزف :

— سأفضى لكم بسر ، سأسافر بعد قليل الى العاصمة .
وسأشقى فى الحياة طريقى كما أريد ولو ذقت الفاقة والجوع .
ثم تركنا ، يخشى اثاره غضب أيه اذا طلع النهار
فلم يجسده فى فراشه .

وعاد الحان مرة أخرى الى هدوئه ، فلم يبق فيها الا نسر
قليل كلهم صامت مطرق ، وجمد صاحب الحان وراء النصب
يدخن لفافته ، وسمعنا وقع أقدام فوق السقف ، وخفت ضوء
المصباح يردد أنفاسه الأخيرة ، وانصرف الجميع واحدا بعد واحد ،
وكنت تلك الليلة آخرهم ، فلما مررت أمام صاحب الحان
استوقفنى قائلاً :

— العجب لك ! انك تشارك الجميع أفراحهم وأتراحهم ،
كأنها أفراحك وأتراحك ، فسعادتك مضاعفة ولكن ألمك أشد ،
أليس لك أنت أفراح وأتراح (
فضحكت فى وجهه وقلت له :

— لا يليق بصاحب الحان أن يكون أشد من رواده سكران ،
أنت تهذى .. خير لك أن تقتدى بأصحاب الحانات من الأجانب
فى العاصمة رأيتهم يصبون الخمر للفقراء وهم أنفسهم يشربون
كوبا من اللبن ويضحكون .. الى اللقاء يا عم فى غد ، صبحك
الله بالخير .

وخرجت فتلقفتنى السماء بنجومها ، والحقول بأريجها ،
والليل خاشع .. لأنه يحتضر ..

٧ - فترة تراث

اننى اكتب هذه المذكرات ، مقطعة ، على مهل ، أنتزع لها الوقت انتزاعا ، ولكنى لا أبداً فصلاً جديداً الا اذا تلوت بعين الغريب كل ما سبقه كلمة كلمة ، فهذا وحده يدخل الكاتب من جديد فى الجو الذى تركه ، ويتسق أسلوبه ، وتشرب فصوله كلها من معين واحد ، ولو ترك نفسه - وهو بشر - عبداً للساعة التى هو فيها لتباين قوله فى غير مطلب فنى ، فهو حيناً نشط ساخر ، وحيناً ضجر ملول ، وأحس القارئ الناقد أنه يسير فى طريق غير مستو ، بعضه معبد وبعضه مليء بالحفر .

ولهذه التقلية ثمة آخر ، فانها تعين على اصطیاد الألفاظ الكاذبة ، ولبعض الألفاظ طبائع الطفيلى - تندس فى الكلام ،

كأنما بدافع الغيرة توهم أنها خير لباس يصلح للمعنى فى حين أنها
تفسده وتقلب جده مزاحا ومزاحه سماجة ، فيقصيها الكاتب ويمد
يده بعد أن برأ من خداعها الى الألفاظ الصادقة ، فتأتى له على
استحياء ، شأن كل حر أنوف لقى من قبلى صدا .

وقد يرى الكاتب أنه رفع بعض البديهيّات الى مصاف
الحكم ، أو أنه أوجز قولاً مغمض وكان يحسبه فى نجواه لنفسه
بيناً ، أو أنه أتى بأدلة أخرى بعد البرهان القاطع وقد يرى أنه
سقط فريسة سهلة فى حب لفظ واحد فهو يتكرر كل سطرين أو
ثلاثة ، فيعجب كيف فعل هذا ، ويلوم نفسه ، ويجرى قلمه بإزالة
هذا الشطط ، ولعله يزيله بشطط جديد أشد نكرا وحماسة .

وأنا حين أحببت اليوم أن أمضى بهذه المذكرات الى غايتها
لأستريح منها وتلوت ما سبق من الأوراق لم أتمالك نفسى من أن
أترث قليلاً ، يعترضنى سؤال يجول بذهنى : أتراك أنصفت حقاً
وصف قرينتنا كما هى نيتك ؟

ان حديثك عنها هو الهامش لا المتن ، انك اقتصرت فى
الكلام على بعض الناس دون بعض ، وخصصت باهتمامك الحان
وحده ورواده ، لأنك واحد منهم — وهم شواذ ، وصفتهم أشتاتاً
لا يجمعهم رباط واحد ، شأن ضيوف « الألبوم » ، الغريب
فى قفا القريب ، أو كهذه المرايا المضحكة فى حدائق الملاهى ؛

مصطفة جنباً لجنب تنطلق للمار أمامها برسوم متباينة ، وما هي جميعاً الا رسمه هو ، فلم يخف وصفك للأشخاص - رغم تحايلك على التستر - من انعكاس صورتك أنت ، وأجريت على ألسنتهم كلاماً لا يتوقع من أمثالهم - وهو كلامك أنت ، وهذا تطفل أو غرور ، أو كلا الوزرين معا .

وليس لي من اجابة على هذا السؤال الا ابتسامة تذوب في صمتها حجته ، نعم ؛ لعلى أرهقت القارىء ، والناس تحب اليوم أن تقرأ للتسلية ، ولكنه لو منحني بعض ثقته فسيسيرى بعد قليل أنه سيعيد تقليب « الألبوم » فيبدو له أهله في صورة جديدة ويرى رباطهم ، فان الكاتب يحب أحيانا أن يتخاثر فيحجز في يده بعض أوراق اللعب لا يكشفها الا حين يحلو له ، متى قدر أن صبر القارىء قد تداعى أو أن لهفته قد بلغت أقصى مداها . ويعلم الله أنني ما أردت التخاثر وانما هكذا انشق الدرب أمامي ، ولو استطعت أن أجمع كل ما عندي في صفحتين لفعلت ولو اهتديت الى نسق آخر أكثر تسلية للقارىء لما عدلت عنه فكيف ينقص عليه من يطمع في الفوز بوده ؟

واقترنت على وصف بعض رواد الحان ، وتركت بقيتهم خشية الاطالة - لأنهم هم الذين وجدت في حياتهم عبرة ، هم الشواذ ، مقدر عليهم - وهذا دورهم المقسوم لهم في دنيانا -

أن تتركز فيهم حدة المتاعب والمشاكل الموزعة - حتى تبدد أثرها - بين العامة ، فهم خير من ينطق بما هناك ، وهم أيضا - وهذا عدل تحت قناع من الظلم - أول من يتلقى الصدمة اذا أصيب كيان المجتمع بهزة ، كالتواء البارزة في الجذع ، عنوان سر الشجرة ، ومكمن الحياة لفروع جديدة ، أول ما يسقط اذا أريد تهذيب هذا الجذع .

أما بقية أهل القرية فهم ملح الأرض ، يكسبون رزقهم بشق الأنفس ، يكابدون - كالحیوان - من مطلع الشمس الى مغربها ، عملا مرهقا تنجزه الآلات في بلاد أخرى بأيسر جهد ونفقة في وقت قليل . وليتهم بعد ذلك فازوا بما يقيم أودهم أو يستر عريهم - وهم مع ذلك قانعون . حاروا في فهم القدر ، وتعليل أسباب الخلل ، وطال تساؤلهم متى تنتهي المظالم وتنعدل الأمور ويستقيم المعوج ويعم السلام ؟

وهم مع ذلك صابرون ، أصبح مطلبهم الأوحاد أن يتركوا لانفسهم ، لنسائهم وعیالهم ، لدوابهم وشقائهم ، لايمانهم وخرافاتهم . كل جديد في الحياة عندهم ضئيل اذا قيس الى قديمهم . وان أمنع الدروع هو الذي يلبسه من لا يبالي . اذا قالوا « انما الأعمال بالنيات » عنوا بها « انما الأعمال بخواتيمها » واذا لم تر وجوههم مبتسمة أغلب الوقت فلأنهم يضحكون في سرهم من الخطيب والبهلوان ، والواعظ والمهرج . . خليها على الله !

٨ - وصول الأستاذ

أعد المسرح منذ الأزل للحظة الموعودة ، ودق الجرس ،
ورفع الستار : المكان : المحطة وجسر السكة الحديدية مندرس
كالأفعى يشق الحيضان الأخضر ، الزمان : بعد الفجر بقليل ، وكان
الليل قد جرجر أذياله واختفى ، كأنه لم يكن أبدا ، لم يبق منه
أثر ولو فى حجم البرغوث ، والنهار طفل راقد فى مهده ، تناغيه
سواء تحنو عليه ، ناعسة العين ندية الأنفاس ، والنخل هس مذاب
فى صبغة من الورد والضباب ، الجمهور : لا عبرة بالعدد ، بل
يكفى متفرج واحد يختاره القدر .

وخرج سائق العربة الفرد مبكرا ليلحق قطار الفجر وفى
قلبه دعاء بأن يكون الراكب المقسوم له كريما ذا وجه صبوح

غير أنكد ، يستفتح به يوما يتعشم أن يعود في نهايته الى داره
زائط الجيب مجبور الخاطر « وأهل بلدنا يستبشرون ويتشاءمون
من أول سحنة تلقاهم في الصباح » لقد أقعده المرض ، مرض
حصانه لا مرضه هو ، عن العمل فترة ، ان تكن عند الحصان
قصيرة ، فهي عنده طويلة ، وأصبح يجوع أولاده في يوم ليأكل
حصانه ، ويجوع حصانه في اليوم التالي لتأكل أولاده ، لماذا
لا يأكلون جميعا في مشنة أو مخللة واحدة ليقتسموا الجوع
والشبع بالعدل والقسطاس ؟ !!

ووصل الى نهاية الطريق الزراعى ، فوقف حصانه العجوز
لا يقوى على طلوع الجسر وان تقوس ظهره وانشب سن حوافره
فى الأرض ، وجلس صانحيننا على سلم العربة كعادته فى كل مرة
صابرا يرقب القطار فاذا سمع ضجته انطلق الى الرصيف وتنافست
عيناه وذراعااه فى اقتناص قادم .

ولكنه فى هذا الصباح لم يلبث أن رأى ناظر المحطة يخرج
الى الرصيف وفى يده حلقة المفاتيح ورزمة من الكميالات حتى
أخذته غفوة واجتباها حلم ، لم يتبين منه فى مبدأ الأمر غير أن
روحه قد خفت الى درجة الانفصال ، فهو - وجسمه ملقى فى
الفراش يراه كما هو رغم ابتعاده عنه - تارة طائر يرقد بصدوره
على الهواء كأنما يحمله جناحان خفيان ، وتارة معلق فى الفضاء
والدنيا كلها تمر حوالياه مر السحاب - فجلبته سعادة مبهمة

وابتسم دون أن يحس بانفراج شفتيه ، ثم اذا به فجأة يرى نفسه يسوق عربته فى طريق ينحدر قليلا قليلا حتى انتهى به الى التربة فوجدها جافة ليس بها قطره ماء ، بل يعطيها حساك ملتف يبلغ قامة الرجل ، وهبطت العربة الى قاعها وأطبقت عليه الضفتان ، كأنما يغوص بينهما ، وبدأ الحصان يتعثر ، ودب الخوف فى قلبه ، وأخذ يتلفت وراءه يظن أنه يسمع زمجرة السيل يدركه بعد قليل ، ورأى الفلاحات يحملن بلايص ضخمة كبيرة ، يهبطن الى قاع التربة ، فلما لم يجدن ماء كفات كل منهن البلاص فوق رأسها وغاب جسدها داخله ولم يبق منه الا قدمان تسييران بكفن من الصلصال .

أراد أن يهتف اليهن « ارجعن ! ارجعن قبل أن يدهمكن السيل ! » ولكن صوته لم يخرج من حلقه ولم تنتبه له واحدة منهن . ولم ينفع حنقه على الحصان لتعثره وبطئه فى ازالة خشيته أن يكون هذا الأبكم - يخنقه الشكم - أول غريق اذا علا السيل فهو مورد رزقه ، بل زميل العمر .

وهب من نومه ، ينتفض جسده وقد تندى جبينه رغم برد الصباح ، والتفت فرأى القطار قد ابتعد عن المحطة ، والرصيف خاليا تتوالت عليه العصافير ، وأخذ يرثى لنفسه ويندب سوء حظه ، وتمنى لو حمل القطار راكبا ولو كان المهندس المخمور ، فلو أنه قدم هذا الصباح لوفى بنذره ودعاه الى النزهة

فى عربته مجاناً فليس أقى على نفسه من أن ىرتد خلوا للقرية .
ثم هم أن ىرقى العربية وىستقر فى مقعده فاذا به وهو ىودع المحطة .
بنظرة أخيرة ىرى على الجسر رجلاً ىنبت من حيث لا ىدرى واقفا
قد جمد فى مكانه ، ىستقبل الطريق الزراعى ، كأنما ىدرسه قبل
أن ىهبط الیه ولعل اتجاه نظرة السائق من أسفل الى أعلى ، أو
لعل طول ظل هذا الرجل ىسيل من موطنه قدمیه على الرصيف ،
وینسكب فوق الجسر ، وترقد رأسه فى الحقل ، لعل هذا أو ذاك
هو الذى جعل القادم ىبدو للسائق فى صورة رجل ضخم عملاق
ىسيطر على الكون . ولكن شخصه ظل مع ذلك ینا محدد
الأطراف كصورة مرسومة بالفحم على صفحة الأفق والضباب ،
كأنه ثقب مفتاح فى قفل باب لا تحتويه النظرة لضخامته .

تأمله ملياً فوجده واقفاً قد وضع یده الیمنى فى جيب
معطفه ، شأن من ىخفى أموره ، هادئاً مطمئناً ، ثيابہ رخم
بساطتها أنيقة ، منسجمة على بدنه ، رأسه مرفوعة فبات
له رقبة طويلة تنطق بأنه ىأبى الضيم ، تساندها أنف مكتملة ،
غير ضئيلة ولا فطساء ، لا توهنها مقارعة الخطوب ، عريض
الكتفين حمال أثقال ، مستقيم الظهر لا ینحنى الا لله . .

دقق النظر الیه مرة أخرى ، كأنما ىعرف ملامحه ولكن لا
ىذكر من هو ، وجرى الیه ووقف أمامه . وثبت القادم نظرتہ عليه
برهة ثم خال للسائق أن عينیه تبتمان كأنما ىمتعنه لیرى هل

تبين من يكون القادم أم لم يتبين ، « وأكثر العائدين بعد غياب
طويل يجدون في هذا الامتحان لذة ودعابة » فاذا بالسائق
يسلم عليه سلام التجلة والاعزاز ويقول له :

— الأستاذ!؟ ما أذهلنى عنك أول الأمر الا أن قامتك تعلقو
قامتى ، فقد غادرتنا وأنت صبي صغير ولم نرك منذ ذلك العهد،
ولكنك مع ذلك لم تخف على ، ولم يكذبنى قلبى حين هتف أنه
والله الأستاذ بعينه • أهلا وسهلا ومرحبا • قريننا يعمها النور
بمقدمك •

أجابه بصوت فيه غنة من يفكر بعقله وقلبه :

— أما أنا فقد عرفتك لأول وهلة وعرفت حصانك وان
كنت وجدتك قد اشتعل الشيب فى رأسك وزاد نحولك ، أما
حصانك فقد برزت عظامه شبرا آخر •••

قال له متبسطا :

— لا عجب أن عرفتنى ، فليس فى القرية غربة أخرى ،
ونحن الفقراء نجمد على صورة واحدة وزى لا يتغير ، فاذا
اشترى أحدنا ثوبا جديدا اختاره من قماش ثوبه القديم ولونه،
لا نسأل الا الستر وحسن الختام •

— بل أذكر اسمك واسم أولادك كلهم •

– ولكن أكثرهم ولدوا لي بعد سفرك ..

– ومع ذلك أعرفهم وأعرف عددهم ..

هم أن يسأله كيف عرف ذلك ، لكنه تخاذل ، بالرغم من أن الأستاذ يبتسم ، ويحدثه بألفة ، إلا أن السائق أحس بأنه رجل لا يحب الهذر ، ولا الإطالة في الكلام ، ولا التهجم عليه بسؤال والسائق كبقية عشيرتنا عاطفي يحب الموانسة ورفع الكلفة .

وحمل السائق ما استطاع من حقائبه ، وبقيت حقيبة أخرى فحملها الأستاذ والسائق يحلف عليه أن يتركها له وهو يأبى . واحتل السائق مقعده ولاذ بالصمت ، ولم يدر للأستاذ رأسه وجذعه ، حين سمعه بعد قليل يقول ، وقد بدت القرية من بعيد :

– لم تغب عنى في يوم ذكرى هذا الطريق ، ومع ذلك فهاأنذا أجده أقصر مما كنت أراه ، لعلى كنت أقيسه بخطو الصبى .

أراد أن يجرب مرة أخرى مبلغ حظه في استدراج الأستاذ الى الفكاهة والمزاح . فقال :

– ونحن يا سيدي أصبحنا نقيسه بالقرش لا بالتر ، فأهل قرينتنا يقولون الآن ، المركز يبعد عنا ربع ريال .. وهو أجزر السفر في سيارات النقل .

فوصله من ورائه صوت كله جد :

— هذا دليل على أن الزمن أصبح لا قيمة له عندكم وأن
الفقر هو الذى جعل القرش أساس كل حساب .. هذا سيزول
.. هذا سيزول ..

وأخذ الأستاذ يشير الى الحقول على الجانبين ويقول :

— أليس هذا حقل فلان الذى باعه لفلان؟ ويذكر من أخبار
الصفقة وثنها ما أكد للسائق أنه على علم بكل أسرار القرية
وكل كبيرة وصغيرة فيها ، فعجب لذلك كل العجب ، وسأل
نفسه : ترى كيف كان يستقى معلوماته ؟ هل له فى القرية أشياء
يمدونه بهذه الأنباء ، دون أن نعلم من هم ؟ وهل يظهرون وقد
عاد الأستاذ ؟ واذا ظهروا معه فما الذى يفعلون ؟

ومن شأن الابهام أن يحمل النفس على الخشية والخوف،
ولكن السائق أحس بنشوة عجيبة وأن القرية مقبلة على أمر
عظيم ، تمنى أن يكون له من ورائه خير كبير ، فمن يرى راكب
العربة كما رآه هو يؤمن بأنه يجب أن يعم القرية العدل والنظام،
وأن يده نظيفة وقلبه طاهر شفوق !

٩ - النية والعمل

وذاع خبر وصول الأستاذ الى القرية فسر له الناس وان
أصاب وكيله غم كبير ، وذهب للسلام عليه أقاربه ، ومعارفه
وفلاحو أرضه . وكثرت الاشاعات من سبب عودته ، وتناقلت
الألسن أقواله ، فوجدنا فيها لأول مرة اهتماما بالغاً بالقرية
وأحوالها وما لحق أهلها من ضنك وفاقه وما عمهم من ظلم وجور .

وذهبت أنا أيضا للسلام عليه وكنت عرفت وصفه من
السائق وأثره في قلبه ، وكاف بلغني أنه قضى معظم نهار أمس
في التجول بين دساكر القرية ، وأمضى ليلته وحجرة مكتبه
مضاعة وهو مكب على القراءة والدرس ، ومع ذلك وجدته في
الصباح نضرا بساما . واستقبلني ببشاشة وأجلسني الى جانبه .

شئ خفى فى هذا الرجل جذب اليه قلبى، أحسست أنه قادم على تحمل عبء باهظ سيحرمه لذة الراحة والسكينة والدعة ، وأحبيت أنا أيضا أن تزول الكلفة بيننا ويفتح لى صدره ، فقد تملكنى منذ جلست اليه شعور الأم التى تريد أن تقي ابنها كل سوء ، وقد رأيتهم يفهم هذا منى ، ويود لو أنه حقق أمنيتى ولكن أدركت أنه التزم الصمت ، والانطواء على النفس والحذر قبل القيام بأقل خطوة ، لا لأنه لا يعرفنى بعد ، بل لأن الدور الذى سيقوم به يفرض عليه - وان تألم لذلك - نوعا من العزلة والترفع عن الناس ، فمن أراد أن تكون نظرتة شاملة ليس أمامه الا أن يترك السهل ويرقى قمة الجبل ، حتى تستبين له روابط المرئيات ونسبة بعضها لبعض ، وهو ما يستعصى على النظرة القريبة .

ولم يمح فهمى لموقفه ما تملك قلبى من اشفاق عليه ، فكل رجل يجد نفسه - بدافع من غريزة الأنانية - يضع رغباته أولا فى رأس القائمة ، ويتخذها المحك الذى يمتحن به بقية الناس وآراءهم ومشاكلهم ، وقلت : لعله ان فعل لم يجد قصصى كلها تهدف للتسلية وحدها .

لذلك جلست أمام الأستاذ مطرق الرأس لا أدرى ما أقوله ثم قمت وصافحته ، أنظر الى عينيه الوديعتين فأرى فيهما مزيجا

من الطيبة والعذاب ، والجهد والصير • والمحبة والنسيان من
أجل ما هو أهم ••

ولم أتمالك نفسي من الألم — وهذا شأن الانسان ! — حين
سمعت أن الأستاذ قد قال عنى حين جاء ذكرى فى مجلسه :

— من هو ؟ آه ؟ هذا الصامت السارح ؟ ليس لى وقت
أضيعه معه ومع أمثاله ، اننى اريد رجال عمل لا بطانة سمار ••

وتركنا الأستاذ بضعة أيام فى حيرة من أمره لا يفضح عن
أغراضه ونياته بالتفصيل ، ثم أعلن أنه يدعو أعيان القرية الى
لقاءه فى داره بعد الصلاة الجامعة فى يومها القادم ليتحدث اليهم
عن أمر جليل • فلم يتأخر عن اجابة دعوته الا نقر قليل • وجلس
الحاضرون فى حلقات من خلفها صفوف ، فالأعيان هم أيضا
مقامات •• وجلست أنا فى ركن قصى •

ولما اكتمل الجمع واستنفدت التحيات والمجاملات وما
أكثرها عند عشيرتنا ! — وقف الأستاذ ومن حوله نفر من شباب
قريتنا نعرفهم بالجد والصرامة والاستقامة والكتمان ، وأدركت
أنهم هم الذين كانوا على اتصال به ، يوالونه بأسرار القرية ،
وساد الصمت ، وشخصت اليه الأبصار وتعلقت به الأسماع ،
وقال فى صوت يكاتم هياج عواطفه الجياشة :

— لقد أعملت فكرى طويلا كيف أقدم لكلمتى ، واينما

درت وجدت أن لا مفر من أن أتحدث عن نفسى ، وأنا أمقت ذلك
- علم الله - مقتا شديدا ، ولكن قضت طبائع البشر ومعاملاتهم
أن لا تفريق بين المبدأ وصاحب المبدأ ، بين القول وقائله ، فكما
أن الناس قلما ينتفعون بكلمة حق تغيثهم عفوا على لسان الباطل
الذى لا يخفى عليهم ، فكذلك قلما يصيبهم مكروه من لفظ
باطل يدسه الشيطان بخبثه فى كلام المنطور على المحبة والعدل
ان أخلصوا ايمانهم به ، فأنا أحب قبل أن تزنوا كلامى أن
أطمئنكم على ما وراءه من نية وقصد ، فأنا ابن هذه القرية ، بها
رضعت وحبوت ، هى موطنى ومستقرى ، اليها أعود وبها أدفن
وأنا واحد من عشيرتكم • ليس بينكم رجل الا تربطنى به صلة
القراية أو النسب أو الصداقة والتعاطف ، فهل يجوز بعد ذلك
أن يخامر الشك من له أقل مسكة من العقل أن أتعمد خداعكم أو
استغلالكم ؟ ان الضرر الذى يصيبكم يلحقنى ، والخير الذى
يعمكم يشملنى ، حتى الأثرة والدفاع عن النفس يقضيان على بأن
أحب بلدى وعشيرتى وأن أسعى جاهدا لينعما بالسعادة والرخاء ،
لا أطمع لنفسى فى منصب أو مال أو جاه أو أصيب خيرا أمتاز
به عنكم •

ولكن النية وحدها ان لم يصحبها العمل جنين لم يولد ،
كل كلام عنه فضول ، ملاحظته أو دمامته ليست لنا بل لنفسه ،
وكل عمل لم يسبقه اتخاذ الأهبة والاستعداد حماقة وتهور

وادعاء .. وما نخسره من اضراب القادرين على العمل أهون
بكثير وأسهل تدازكا وعلاجا من الضرر الذي يصيبنا من عمل
المتسرعين •

استبان لى هذا حين فرغت من مراحل التعليم وأزمنت العودة
اليكم وكان غيابى يؤجج محبتى لبلدى وأهلى حتى بلغت حد
الوله وملكت على قلبى ولبى ، وهى ضجيعتى فى أحلامى ، وهى
رائدى أينما سرت ، ولكن كيف أخدم بلدى وأجاهد لرفع
الظلم عنها ، انه ظلم عتيق متغلغل متشعب •

ومكثت الشهور الطوال حبيس حجرتى الا أنقطع عن
الدرس والتأمل فاستبان لى الحقائق ووضع الطريق •

وقلت ما دامت النية صادقة وما دام الاستعداد قد كمل ،
فقد هانت الصعاب ، وكان أول ما فعلته أن خلوت لنفسى وجئت
بورقة وقلم وقلت لأكتبن ما تشكو منه القرية مسلسلا فى جانب ،
لنحصر موضوع البحث ، ونكون فى الصورة ، وليسهل ذكر
العلاج الناجح أمام كل داء •

ولم أكد أفرغ من حصر الأدواء حتى تبين لى أنها تفاصيل
لا علاج لها ما دام الأساس الذى تقوم عليها جميعا هو منبع
الفساد • هذا الأساس هو ما قد قر فى أنفس أهلها من شعور
الضعة والهوان ، والتسليم والسكوت على الظلم ، وإيثار

الراحة والسلامة ولو كان فيهما الذل على الجهاد ولو كان فيه بعض الفداء ، والنكوص عن المطالبة بالحق واهمال أداء الواجب ، وهذا هو الضياع بعينه •

سأعمل اذا جاهدنا على بث شعور العزة والكرامة فى قلوب أهلنا واقناعهم بأن خلاصهم فى الشجاعة فى المطالبة بالحق وأداء الواجب على حد سواء •

وقد اعتزمت أنا وأصدقائى أن نحمل الناس على سلوك هذا الطريق بالحسنى أول الأمر ، والا فبالزجر والشدة وستتطوع منا جماعة لمراقبة الناس فى المتاجر والأسواق ، بل فى بيوتهم اذ ينبغى لكل معوج أن يستقيم ، ولا يقبل منه عذر ، وأن ينصرف الرجال الى عملهم معرضين عن اللهو والعبث ، فالوقت ضيق والشوط أمامنا طويل •

ولما فرغت من الأساس رجعت الى التفاصيل التى كتبتها فى القائمة فوجدت أن وصف العلاج لكل حالة لا يحتاج الى تفكير طويل وجرت يدي بذكر العلاج الناجع أمام كل حالة ، فى جلاء لا يعتوره شك أو ريبة •

فأول المظالم هو ما يعانىه الفلاح فقررت أن أتولى أمورهم وأفوز لهم — بفضل وقوفهم ورائى — على تحديد الايجار ببلغ معقول لنوفر فى أيديهم المال ، وسأكون أنا أول من يطبق هذا

النظام الجديد على نفسى ، وسأحصل لهم أيضا على موافقة الحكومة على أن تبيعهم ما تملكه من أراض واسعة فى زمامنا لقاء ثمن زهيد يدفع على أقساط طويلة - وسألاحق الملاك حتى يقتدوا بى فى بناء دور جديدة للفلاحين ، يمد لها الماء والنور .

وآخر مظالم القرية عهدا هو حرمانها من السكة الحديدية وسأسعى لرفع هذا الظلم بكل قواى وسأنجح باذن الله .

ثم ينبغى اغلاق الحان لأنه بؤرة فساد ومدعاة لانصراف الرجال عن بيوتهم ، فهو يجسع الضال والعاث على الخسائب والسارح « وهنا شعرت أن الأستاذ يثبت نظرتة على » وينبغى أن يعمل كل عاطل ، وأن يسدد كل مدين دينه ، وأن يتوب كل زوج فاسق ، وكل ولد عاق ، وأن يسان شرف كل رجل ولو رغم أنفه ، لئلا يكون قدوة سيئة لغيره - فان حماية الأخلاق من شأن الجماعة قبل أن تكون من شأن الأفراد .

هذا ما أريد أن تعينونى عليه ، ومن أجله جمعتمكم .

من منا يابى أن يستجيب لداعى للخير والفلاح ؟ هب الجميع والتفوا بالأستاذ وأصدقائه ، يبايعونه على السير وراءه واتباع مشورته ونصحه ، ثم أخذ بعضهم يهنيء بعضا بهذه الروح الجديدة التى ستعم القرية وكل منهم يحسب فى قرارة نفسه ماذا سيكسبه أو يخسره ، مفضلين التريث الى أن تتجلى الأمور .

١٠ - غياب

من طبعى أننى أحب الراحة واستمرىء الكسل ، وقد أعدل
عن النهوض اذا مددت قدمى فلم تجد الخف فى مكانه ، وكفى
بالكسل رائضا على الصبر ، والصبر سيد الفضائل وأشقى منالا ،
واذا كنت كذلك فأنى أكره اقتحام الأبواب ، ونبش الأسرار ،
وتتبع الأنباء والاشاعات ، ولكنى وجدت نفسى فى الفترة التى
أتحدث عنها ، يدب فى نشاط لم آلفه ، هو أشبه شىء بالقلق ،
فأعصابى متوترة ، تناوش روحى كوجع الضرس ، ذبذبة وهزات ،
وأصبحت لا أطيق الاستقرار فى مكان ، وزاد تلفتى وتطلى ،
وعرفت الأرق ، وكم من ليلة هممت فيها - ثم كفت وهمى -
أن أطل من النافذة لأتسمع ، يخيل الى أن الجو كله مشحون

بنذر ، وجعلت همى أن أدور على أصدقائي وأصحابي لأطمئن عليهم فأجدهم فى أتم صحة وسلامة ، ثم لا ألبث أن أعود أدق بابهم فى المساء أو فى الصباح من غد ، كأنتى أخشى كل مرة أن أتزود منهم النظرة الأخيرة ، وصرت لا أسمع عن خبر إلا جريت له ، أريد أن أكون فى كل جهة ، وأن أشهد كل ما يحدث ، كأنتى مكلف من قبل قوة خفية طاغية بتسجيل تاريخ الأيام •

وإذا بى أنهد فجأة ، افترسنى - ولا أدرى كيف - مرض لثيم متستر امتص عافيتى واستنزف قواى وقيدنى بالفراش وكان عذابى لانقطاعى عن الحركة وتتبع أحوال القرية يشغل ذهنى ، أشد ما أعانيه •

وجاءنى طبيب القرية ، وهو رجل طيب ، لا يزال يغسل يديه. كما كان يفعل أطباء آبائنا وأجدادنا - قبل الفحص وبعده ، ورأيت من نظرتة أنه حكم بأن دائى خطير ، وان هلاكى أقرب الى الاحتمال من شفائى ، ونصحنى ، وهو يطمئنى ، أن أغير الهواء وأسافر للعاصمة فيتاح لى أيضا - كما يقول - أن أعرض نفسى على أطبائها الأعلام •

وهكذا غادرت القرية رغم أنفى - نادبا سوء حظى ، وأكذب إذا زعمت أن الخوف من الموت لم يحتل قلبى • أو أن انشغالى على الغير ظل على حاله مع انشغالى على نفسى ، ولكنى عالجت الخوف بالتوكل على الله ، ولم أثر حين رأيت انشغالى

على القرية ينقلب من انشغال اللاعب فى الميدان الى انشغال
المتفرج البعيد ، وشتان بين الاثنين •

ودخلت احدى مستشفيات العاصمة وأنا لا أتمالك نفسى
من الابتسام ، وكنت اذا نزلت من قبل فنادقها ، المخصصة للطبقة
الوسطى ، أحسست - والوحدة ترهقنى - أن حجرة الفندق فى
عصرنا كبائعات الهوى لا تفتح أذرعها الا لمن يريد الانمحاء فورا
فاذا طلب منها الأمن والدعة والسكينة طردته هذه الأذرع ذاتها
بغير شفقة ، وكنت أقول لو خيرت لاخترت النزول ولو أنبى
غير مريض فى احدى المصحات ، فهى أنظف وأرحم ، ومن تحدى
القدر فأصابه بالمكروه الذى تشوف فلا يلومن الا نفسه •

ودفعنى طبيب الامراض الباطنية الى طبيب الاسنان ، وهذا
الى طبيب الأشعة ، وهذا الى طبيب الأنف والاذن والحنجرة،
وهذا الى طبيب القلب وهذا الى الجراح ، ثم قالوا لى ينبغى
لك السفر الى بلد أجنبى فلا شفاء لك الا بجراحة دقيقة ينفرد
بعملها طبيب من أهل ذلك البلد • واذا بى أغادر القرية وحدها
بل أغادر القطر كله •

وغبت أكثر من سنة ••

الكتاب الثاني
السير

١ - المحطة وكناس المحطة

أول نبأ وصلني عن القرية بعد أن عدت الى العاصمة تلقيته من فم صراف التذاكر ، سألته تذكرة لمحطة الجسر ، فالتفت الى مندهشا وقال :

— صح النوم ! ألا تعلم أن هذه المحطة قد ألغيت منذ شهرين واستبدلت بها محطة أخرى ؟

فأدركت أن الأستاذ قد نجح في تحويل الخط الى قرينتنا ، وأخذت التذكرة أتأمل اسم قرينتنا عليها مبتسما متعجبا مسرورا ، واحتلت مكانى فى القطار ، وعلى لسانى ألف سؤال ، ولكن نفسى هادئة لا تعرف القلق ، فقد عاد لى مع الشفاء طبعى القديم !
حب الراحة واستمراء الكسل •

ومضى أغلب الطريق وأنا سارح الذهن ، ثم أخذتنى غفوة

لم تغلب الشوق فاذا بى أستيقظ من تلقاء نفسى والقطار يهم
بالوقوف على محطة قريتنا .

ما شاء الله ! ما شاء الله ! . . متى أقيم بناء المحطة ومنزل
الناظر والرصيف وكشك الاشارة ؟ ولكن أين أنا ؟ ألم يكن هنا
مكان السوق ؟ وأين ذهب السوق يا ترى ؟ ما أجمل هذا الميدان
الذى خرجت اليه ، ووقفت أتأمل ما حولى . ولا تستبين عيني
معالم القرية ، ألم يكن هنا منزل تاجر الغلال ؟ أين ذهب ؟ ودكان
الحلاق ؟ قد اختفى ، وأين المنعطف الذى يقف عنده بائع
العرقسوس ؟ كان هنا صف من المنازل القديمة المتواضعة تتوارثها
أسر جيلا بعد جيل أين هي ؟ هل تفرقت جيرتها ؟

ومر بى عامل فى رداء أصفر يجر عربة يد . ما هذا الزى ؟
فلما استوضحته علمت أنه عامل النظافة فى المجلس القروى
الجديد . ثم استطرد يقول :

— لم يكن ينقصنى الا أن أكلف أيضا برفع مخلفات القطار
أن الركاب لا يستحون ، لا يحلو لهم فى السفر الا أكل البرتقال
واليوسفى ، بل ان بعضهم يمص القصب ، ويلقون مخلفاتها من
النافذة بلذة عجيبة . وماذا يهمهم ؟ ومن الذى يستطيع الامساك
بتلابيبهم وهم فى قطار يمرق كالبرق ! وما قولك فيمن لا تمشى
بطنه الا اذا وقف القطار ؟ لقد نبه علينا أن نظافة المحطة عنسوان
القرية وسمعتها ؟ آمنة وصدقنا . ولكن أين مصلحة السكة
الحديدية ؟ لماذا نجد نحن وتهمل هى ؟ ألم يكن الأولى أن تنفذ

هى تعليماتها أولا ، أم نحن المكلفون بتتبع أخطاء الغير
لاصلاحها ؟ كان العدل يقتضى ، ان كان هناك عدل حقا كما
يدعون - أن تعين مصلحة السكة الحديدية عاملا من عندها يتولى
نظافة المحطة والشريط • ان هذه المصلحة ينبغى قلبها رأيا على
عقب واعادة تنظيمها •• يا سيدى أنا مرهق بالعمل ، أكنس
الشوارع وأرشيها ، وهذا جهد يهد الجبال • وهل تحسب أن أهل
القرية قد كفوا عن القاء القمامة فى الطريق ؟ هم هم طبعهم لا
يتغير والعباذ بالله • أفليس من الظلم أن أكلف أنا أيضا بكنس
المحطة؟! أقول لك الحق ، اننى بعد أن كنت أكنسها مرتين فى
اليوم طبقا للتعليمات - أصبحت لا أكنسها الا مرة واحدة أول
النهار ، وعلى عجل فكل العمل عندنا سلق بيض وتسديد خانة •
المهم أن يوضع لنا كادر ينصفنا وتزاد علاوة الغلاء •

ولما استنفذ شكايته والاشادة بمجهوده تنبه فيه حب
الاستطلاع فسألنى من أين أنا قادم فلما أنبأته أننى راجع من بلد
أجنى من وراء البحار لم يسألنى عن أهله وجوه وعجائبه ، بل
بادرنى متلهفا بسؤال واحد :

- كم يبلغ مرتب العامل مثلى فى هذا البلد ؟ وكم ساعة
يشتغل ؟ ••

وقفت أمامه حائرا مترددا ، أسأل نفسى هل أتكلم أم
أصمت ثم توكلت على الله وقلت له :

– ماذا كنت تشتغل قبل تعيينك فى المجلس القروى ؟

– صبى كلاف فى زريبة تاجر الألبان •

– أظنك كنت تدعو الله صباح مساء أن يتوب عليك من

كنس روث البهائم ولو اشتغلت كناسا ؟

امتقع وجهه قليلا وتمتم يقول :

– من أين تعرف هذا ؟

– وأظن مرتبك قد تضاعف ، وهذه الملابس تصرف لك

بالمجان ؟••

فقال غاضبا وهو يولى عنى :

– وما شأنك أنت حتى تحرمنى من تسلية الشكوى ؟ ومن

يدريك اذا رضيت وأغلقت فمى أن ينسانى المجلس القروى ،

ويمر بنا دور الترقية فيتخطانى ؟

٢ - جندي المطافئ

تركته وأنا أحمد الله أنني لا أسكن هذا الحي الذي أمحي
من الوجود ، وأن منزلي بعيد عن العمران ، قانع بجوار الحقول،
وسرت قليلا لا أنقطع عن التعجب والتلفت شمالا ويمينا ، فاذا
بى أجد نفسى أمام مبنى جديد فوقه لافتة تعلن أنه « قوة
المطافئ » ورأيت جنديا ضخما الجثة مفتول الشارب على رأسه
خوذة لامعة - ان منظره يخيف ! - واقفا بالباب مريد الوجه
كأنما يتملكه غيظ شديد .. فانعطف قلبى له ، واقتربت منه ،
وقدمت له لفافة تبغ فتناولها بأنفة كأنما هو الذى يجود بها على،
ولم أكد أسأله عن أحواله حتى انفجر فى يقول :

- أنت أول من يسألنى عن الأحوال ، لا شك أنك غريب

فى هذه القرية • فان أهلها والمجلس الفروى ، لا يبالون بنسا
كأننا لسنا فى خدمتهم • قلت له وقد مهد لى عامل النظافة طريق
الصبر :

— لعل لكل انسان مشاغله وعذره •

أجابنى محتسدا :

— هذه هى الأنانية التى كانت سر شقاء هذه القرية
وتأخرها ، فاذا لم تزل من القلوب ، ونحن فى عهد الاصلاح —
فكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا ••

— وما هى متاعبك ؟

— آه ! تسألنى عن متاعبى ، ولكن من أين أبداً ؟ ان شعورنا
لأول مرة بالمسئولية هو الذى جعل لكل منا رأيا فى أحوال
هذه القرية ، ولو تنازل الأستاذ وسألنى لكنت دللته على الصواب
ولكنه مشغول لا يفرغ لامثالنا •

— الأستاذ ! وما شأنه فى هذا ؟

— ألا تعلم أنه عندتنا الجديد ؟

— وأين العمدة السابق ؟

— هو مضاع الآن فى عمرة الناس بعهد أن سقط فى
الانتخابات وأصبح لا أحد يدرى أمره • سمعت أنه مغموم ، مع

أنه رجل عجوز ، ميسور الحال ، وأولى به أن يـتـريـح ، فماذا يطلب أكثر من ذلك ؟

فـعـجـبـت للانسـان يوصى غيره بالقناعة ، ولا يقنع هو ..
ووقف برهة صامتا ، ثم توكلت على الله ، وسألته :

— وما هو الرأى الذى كنت تريد أن تصارح به الأستاذ ؟

— الرأى الذى أراه هو أن الأمور لم تسر بترتيب منطقى معقول . كان ينبغى قبل مرور السكة الحديدية وسط القرية أن تكلف مصلحة المباني بالكشف عن دورها ومنازلها لتزيل ما هو آيل للسقوط منها ، لا يحتمل رجة القطار ، ثم تدعم ما يمكن انقاذه من المنازل المجاورة المشريط ، ولكن هذا لم يحدث ، وانى أطلب بمجازاة مصلحة المباني لاهمالها ، أو ان تزال منها العناصر الفاسدة المسئولة عن هذا الاهمال . هناك اشاعات كثيرة عن اتفاقات غير شريفة بين المصلحة والمقاولين ، وليس هناك دخان بلا نار ، وعلى رأس من يقع هذا الاهمال ؟ على رأسى أنا ..
ولا أحد يدرى .. تصور ! اننى منذ انشاء القوة لم أنقطع عن العمل لا ليلا ولا نهارا ، يا سيدى أنا مرهق . فنحن مكلفون برفع أنقاض المنازل التى تهدمت ، انظر الى يدي ، هل ترى الجروح التى ملأتها ؟ لقد تهدم أكثر من عشرين منزلا ، هذا الى جانب الحرائق التى دمرت أجران التبن من شرر القطار ، ونحن

• أربعة فقط فى قوة المطافىء ، وكان ينبغى أن يعمل فيها عشرة
أو عشرون ، ولكن يقال لنا انتظروا الميزانية ، ونحن ننتظرها ..
ولكن هيهات !

– وهل قدمت تظلمًا للمجلس القروى ؟

– نعم أكثر من مرة ، ولكنه مشغول بألف مسألة ، فكيف
يفرغ لنا !

– أصبر • سيأتى دورك •

– مت يا حمار الى أن يجيئك العليق ..

وشدتى الجندى من يدى وسار بى حتى وقفنا عند الشريط
وأشار الى صفوف المنازل القائمة على جانبيه ، قد اسودت
جدرانها واختفت أصص الزهر من نوافذها وقال :

– هذه المنازل كلها متداخية ، وستتهدم واحدا بعد آخر ،

فكيف نعمل وماذا نفعل ؟

– قد يكون الخير فى انهدامها لتتسأ مكانها ميادين
وشوارع جميلة أو تبنى محلها منازل جديدة نظيفة ، فهذه
سنة الكون •

– ومن يضمن أن يفرغ المجلس القروى من المنازل الجديدة

قبل أن تنهدم القديمة ، أليس هناك من يسأل أين يذهب الفقراء
من سكان هذه المنازل ؟

— بحسب رأيك اذا ، كان ينبغي قبل مد الخط ، أن تبقى
جميع المنازل كما هي ، ثم تبني منازل جديدة لتهد القديمة ثم
يمر خط السكة الحديدية • ولو صبرنا الى أن يتم ذلك كله
لما مر الخط ولبقيت المنازل القديمة على حالها • المهم أن نبدأ ،
ووسائل العلاج سهلة بعد ذلك ، وسيأتي علاج كل مسألة في
أوانها ، ومسألة استيعاب دور القرية لسكانها ليست مشكلة
اليوم ، بل نحن نعانيها منذ زمن بعيد •• ولعلك لا تعرف هذا
لأنك لست من أبناء القرية ، فيما أرى •

باخ غضبه ، وطار ماذا يقول ، فالمشكلة عنده أعوص من
أن يهتدى لحل لها ، وانقلبت كبرياؤه الى استخذاء وهو يقول
لى : — تصور ! المجلس القروي يساويننا فى الكادر مع عمال
النظافة ، فأين الانحاء لجمع القمامة من الدخول فى اللهب
والأسقف والجدران تنهدم •• فهل هذا عدل ؟!

٣ - سائق العربية

وخلفته وقد وقف بالياب من جديد مربد الوجه منتفش الصدر ، مصعر الخد ، مزهوا بما يضمرة من آراء ، معتزا بما هو قادر عليه من انتقادات ، وسرت نحو منزلي ، فقد آن لي أن أعود اليه وأحط عنده عصا الترحال ، ولكن في ذهني سؤالان مبهما لا أتبينه . ما هو ؟ أحسست أن شيئا ينقصني وأخذت أرتب تفكيري وأصور نفسي وأنا قادم في مرة سابقة من سفر وأقارن بين حالي عندئذ وحالي اليوم . آه . آه تذكرت أين سائق العربية الفرد ؟ سمرت قدماي ، ووجف قلبي خشية عليه ، كيف أصبح بعد أن ألغت المحطة القريبة معين رزقه ، أخذت أتلفت شمالا ويمينا ، وسألت بعض الناس عنه ، لا أريد أن أقصد داري قبل أن ألقاه وأطمئن عليه .

وأخيرا وجدته عند باب المسجد ، جالسا على عتبته محنى الظهر ، مغبر الوجه ، رأيته يستجدي الناس ، فاقتربت منه وربت على كتفه فرفع الى نظره ، فلم يكذب يرانى حتى هب واقفا وعانقنى واغرورقت عيناه بالدموع .. وقال لى :

— لا تحسبنى أبكى على نفسى ، ابنى حين دهنى القطار أنا أيضا — فقد دهم عددا من أبناء قرينتنا ، بعضهم مات صريعا تحت عجالاته ، ومنهم صبية ، فيهم من فقد ذراعه ومن فقد ساقه ، وستراهم بعد أن تندمل جراحهم على باب المسجد يتكفنون الناس .. حين دهنى القطار أنا أيضا ونزلت على مصيبتة وانقطع رزقى لم أسخط على الزمان ولا على من عدل الحظ . وانما كان سخطى على حماقتى أنا وسوء تدييرى ، بلغت من العمر آخره ولم أحسب حساب اليوم الأسود ، وكان ينبغى لى على كل حال أن أتقاعد ، وأجد مما وفرت من المال ما يقينى ذل الحاجة ، ولكنى كنت أهزأ بالزمان ، وأمقت الحرص ، وأكثر من التدلل على الله . فهزأ بى الزمان ، وانتقم منى الحرص ، وغابت عنى رحمة الله ..

وانما بكائى على حمانى العجوز لو أصابه مرض مفاجيء فمات لما تفر قلبى عليه ، بل لعل قلبى ينبسط حين أجده قد زایل الشقاء والتعب وأخلد للراحة تحت التراب .. ولقلت عمر وانقضى ولكنى مكثت أياما طويلة أرقبه وهو واقف أمامى ،

على سيقان كأعواد الكبريت ، ركبته خلاخيل ، فوقها بطن
شخيتة (١) ، وظهر مقوس ورأس ناحلة وخشم يعشش فيه
الذباب .. يذوب جسده من الجوع شيئا فشيئا حتى أصبح
جلدا على عظم ومع ذلك لم يكن غاضبا على ، بل كان ينظر الى
بعطف وحنان كأنه يرثى لحالي ولا يريد منى أن أرثى لحاله ..
ثم تفق ولم أشأ أن ألقى بجثته فى النهر ، بل دفنته بجوار الجسر ،
بالقرب من شجرة الجميز .

— ولماذا لم تبعه وتنتفع بشمنه ؟

— وأين من يشتريه ؟

— لقد رأيت عربات نقل كثيرة محملة بالأحجار والطوب .
والبناء فى القرية أصبح حركة لا تنقطع !

— ماذا دهاك وما الذى غيرك ؟ لم يكن عهدى بك كذلك ،
تقول للأعرج اجر ؟ أفيرضيك بعد صحبة العمر أن أسلمه لمثل
هذا الشقاء . ولو فعلت لما عاش أكثر من أسبوع . اننى كنت
دائما اذا خيرت حين لا مفر من الظلم .. بين أن أظلم نفسى أو
أظلم غيرى فضلت دائما أن أظلم نفسى .. وشتان بين أن تنام
متحسرا وبين أن تنام فى عرق الخجل .

(١) ضامرة ، يقال فلان شخت أى دق جسمه خلقه فهو شخت وشخيت .

— وأنت ماذا تفعل ؟ تعال أقم فى دارى ما شئت ، وما يكفى
طعام واحد يكفى اثنين •

— انك ستحتملنى يوما واثنين ولكن ستضيق برجل عجزوز
مثلى فى نهاية الأمر ، ان حملى ثقيل فدعنى لقسمتى ونصيبي ،
ومادمت سأعيش على الاحسان ، فسواء عندى أن يكون احسان
رجل واحد أو رجال عديدين ، كما هو حالى اليوم ، بل لعل
احسان الذين يجهلون أمرى أخف وقعا على نفسى من احسان من
يعرفنى وشهد سابق أيامى •

— اننى لا أحب منك هذا اليأس • لماذا لا تقول ان القدر
قفل باب الرزق ليفتح لك بابا أوسع منه ، قد يكون من ورائه
خير كثير لك ، لم يكن فى حسابك ، فان انشاء المحطة قد فتح
الأبواب لأعمال لم تكن تعرفها القرية من قبل ، لا أطلب منك
أن تشتغل حمالاً تنقل أمتعة المسافرين ، فقد يرهقك هذا العمل •
ولكن التجار المصدرين والمستوردين أصبحوا يحتاجون لمن
يشرف على شحن بضائعهم بالقطار وتسلمها وأنت تألف المحطة
وموظفيها ، فهذا عمل سهل لو جربته لعاد عليك بأكثر مما حرمت
منه •

— يا أخى ! أتطلب منى فى مثل هذا العمر أن أتبدل ؟
اننى كنت أسوق العربية وأنا مغمض العينين ، أعرف من وقع حوافر
الحصان أى مكان بلغناه ، أعرف كل طوبة وحجر ، كل من أمر

بهم يسلمون على وأسلم عليهم بأسمائهم ، عشت هكذا ، لا سنة بل ثلاثين سنة ، فهل تظن من اليسير على أن أتلبس مهنة أخرى قد أقابل فيها الأردال من الناس ، من لا يعرفون قدرى وماضى ؟ سينظرون الى نظرتهم الى دخيل منافس • وقد يكون فيهم من الشباب من يضيق بشيخ عجوز مثلى أشد الضيق •

— اننى سأكلم لك المجلس القروى ••

— اذن جاء الفرج ، دع المجلس القروى ياعم فى حاله ، من أكون حتى يفرغ لى ، وما أنا الا رقم فى عمود مسلسل ، ليس المطلوب أن تقرأه رقما رقما ، بل أن تعرف حاصل جمعه ليطرحه المجلس القروى من حاصل جمع عمود آخر ، فيعرف صافى رصيده فأنا وأمثالى من المطروحين •

— ولكن الأستاذ لا يخيب رجائى اذا حدثته عنك •

ألا تعرف أن عهد الوساطة والشفاعات قد انتهى ؟

توليت عنه وأنا آسف لعجزى عن اقناعه ، وعن مساعدته ، وعن التفكيك فى مخرج لأزمته ، تركته لخالفه فهو به أرحم ، وأعجبت بالرجل وزاد قدره عندى ، لم تنبس شفاته — رغم محنته — بكلمة نابية ، لم يسب أو يلعن ، لم التهم جزافا •

ولكن لم أكد أسير خطوتين حتى نادانى وجاءنى يقول :

— لعلك لم تعلم بعد أن المجلس القروى قد قرر فى جلسته

الأولى اغلاق الحان ، لأنه أس الفساد فى القرية ، وقد تشتت
أصدقاؤك وقبع كل منهم فى منزله ، كما يدخل الضب الى جحره .
فقلت له متلهفا :

— وأين صاحب الحان ؟ اننى أريد أن أراه .

فقال وعلى شفثيه ابتسامة نصفها حزن ونصفها خبث ومرح:

— اذا مررت بالقرافة فاسأل عنه تجده هناك .

فظننت عندئذ — لغفلتى ! — أن صاحب الحان قد اختار
لمسكنه الجديد واحدا من تلك المنازل المتواضعة التى تحيط
بالقرافة ، وعزمت على لقائه ، ولكنى أجلت زيارته للصباح ، فقد
كنت تعباً وأجبت أن أهرع لدارى ، فألقى كلبى الأسود ، الذى
اشتقت اليه وأن أخلو لنفسى ، وأن أتسلى بورق اللعب وحدى
وأفتح الفال ! وهو ما يسميه أهل البلد الذى استشفيت به
« لعبة الصبر » ..

٤ - صاحب الحان

كان فى عزمى أن أخرج مبكرا لأجول فى القرية ودساكرها وأشاهد حالها الجديد وأسمع حديث الناس ولكنى لم أقو على تنفيذ هذا العزم من قبل أن ألقى صاحب الحان ، بعد أن تحركت نفسى لرؤياه • فذهبت ناحية المقبرة أبحث عن منزله فلم أجده ، وسألت عنه فقيل لى :

— انه لا يسكن هنا ، ولكن اذا دخلت المقبرة فاسأل عن التربى فانه هو •

سبحان الله ! يشتغل تربيا ماذا جرى له ؟ ولماذا اختار هذه المهنة دون سائر المهن • هل قال لى من قبل شيئا نسيته يفسر سر اختياره لهذه المهنة ؟

ودخلت المقبرة فوجدت صاحب الحان جالسا على تركيبة

من الرخام فوق قبر ، قد أحنى رأسه على صدره ، وتنادى جبينه
بالعرق ، ورأيت أن بداتته قد زادت ، وبرز كرشه ، وابيض
شعره .

فلما وقفت أمامه رفع الى وجهها ممتقعا وعينين محمرتين ،
وثبت نظرتة على قليلا ، ثم صرفها عني ، وأخذ ينكث بعود في
الأرض . أصبح ليس للزمن وللحوادث عنده حساب ، كأنني
فارقتة أمس في حاته ، وكان شيئا جديدا لم يقع بين اللقائين ،
فحرت كيف أكلمه ، ومن أين أبدأ حديثي ، كان هو الذي بدأ
الكلام بصوت خافت أخذ يعلو شيئا فشيئا :

— لا تأس على ! يوم أغلقت الحان وجدت نفسي أمام مشكلة
لا تزيد ولا تنقص عن بقية مشاكل الناس . اذا ألغيت كل شيء
سواها ووقفت أمامها مشلولا ، وسمرت نظرتك عليها بدت لك
داهية دهماء ، لكنها اذا ربطتها بما قبلها وبما حولها لم تزه عن
أن تكون حادثة بلهاء لا خطر لها ، لو أرسلت نباها للصحف
جميعا ، ما يعنى منها بالفجائع ، وما يعنى بالمهازل — لما نشرتها
صحيفة واحدة — كان على اما أن أفارق القرية ، وهذا مالا
أستطيعه ، لأنني أكره الهجرة ، واما أن أنهزم وأجد طعم البطالة
مرا حلوا في وقت واحد ، وهذا ما أتفت منه ، واما أن أبحث عن
عمل جديد ، ومن حسن الحظ أنني لم أتعب كثيرا ولا طويلا
في البحث عن هذا العمل ، فقد مات وقتئذ تربي القرية فأسرعت

وقبلت الحلول محله ، وهو عمل ليس عليه تراحم كثير ، ومكسبه
لا يقل عن مكسب بقية الأعمال ، فلم أكد أبدأ العمل حتى
أحسست أننى خلقت له ، وأنه خلق لى •

— كيف ؟ هل يعجبك هذا العمل ؟ دفن الموتى ! يراك
الناس فتشيع وجوههم وتنقبض قلوبهم ، وقلما سلم عليك انسان
أو آكلك الا سأل نفسه ، ألا تزال فى يده رائحة الجثث ؟
صمت قليلا ثم نظر الى وقال :

— ان لهذا العمل أسراراً لا تعرفها ، وقد أدركت بفضل
أشياء كانت غائبة عنى ، أشياء ينبغى أن تظن لها • اننا نولد لنا
معدن خام فنج ، وقد خلقت الدنيا لتصهره وتصلقه ، فكيف
لا تعبطنى على أننى لا أخرج من الدنيا — كما دخلتها — لا علم
ولا تجربة •

لا أدرى لماذا وجف قلبى ؟ أشفتت أن يكون قد أصابه مس
من الجن ، أم لأنى خشيت أن يدلى الى بأسرار مزلزلة فقلت له
متلعثما :

— أخبرنى أنا أيضا ، اننى صديقك ، واننى لا أزال ، كما
تعهدنى ، متعظما للعلم •

أمسك يدي واجلسنى بجواره ثم التفت وقال يكاد يهمس
فى أذنى :

— اذا هبىء نفسك لما سأقول : ان الانسان استطاع بعقله
أن يقيس الأرض ، ويزنها ، وأن يعرف بعد الشمس ودورانها ،
وحساب الأفلاك كلها ، واستطاع أن يتغلب على العناصر ، ويمزج
بينها ، ويفك عقال ما تخبئه من قوى جبارة ، ولكنه يضرب فى
الجبل ، ويهبط الى الوادى ، ويقف أمام البحر ، ويناجى النجوم ،
ويتأمل الزهر ويهتز لمطلع الفجر ، وينقبض للغروب ، وهو فى
كل هذا لا يظفر من الطبيعة بكلمة واحدة أو اشارة عابرة تدل
على أنها تحس بأنه هنا !

ان حديثه مع الطبيعة منولوج — من جانب واحد ، هو ممثل
فى مسرح ليس فيه فرد متفرج ! كان ينبغى له ازاء هذا الصمم
أن يقنع بأنه كالنمل والنحل وسائر الحيوان والنبات — بل
والجماد — مخلوقات متساوية ، تظهر وتختفى ، ويختلط بعضها
ببعض فى عجيبة واحدة ولكن كيف يقنع الانسان بالانمحاء ، وقد
أتى بالمعجزات وتقد الى الأسرار ؟ لا ترضى كبرياؤه الا أن يجد من
الطبيعة ردا على كلامه يشعره بمقامه وهو ظالم فى التجنى عليها
لأنه فى — حماقته — قد قصر نظرتة على الحياة وحدها ، فهناك
لحظة ، لحظة هائلة ، تهب فيها الطبيعة فى آتم قوتها وعنفوانها ،
وتصيخ للانسان ، وتفهم نجواه ووجيعته ، فتفتح له ذراعها
وتضمه لصدرها ، وتغمره بقبلاها ، شأن الأم الرءوم التى لا ولد
لها غيره ، هى لحظة الدفن !

انظر الى هذا البشر الذى يسير أمامك ، انهم حين يموتون يعاد من جديد وزنهم ، فهذا الأكرش العملاق أتناوله بين يدي فاذا بى أحمل جسم طفل صغير ، رقيق العظام ، ضامر اللحم ، رخص الأطراف ، وهذا القزم النحيل أحمله فلا أقوى على السير وأتعر به على سلم القبر ، انه أصبح كرة ضخمة ثقيلة ، اذا مخضتها حركتى أحسست بأنى أحمل على يدي البحر المحيط كله بهديره وأملاحه وعواصفه .

ولكنهم كلهم سواء فى اسراع الخطو ، هم الذين يدفعوننى ويسوقوننى دفعا وسوقا ، اسمع صرخاتهم جميعا : اسلمنى للأرض ، اسلمنى للأرض ، فاذا وسدتهم التراب كانت لحظة أرى الأرض تهتز وتموج ، سرت فيها رعشة المشتاق حين يضم حبيبه ! عين تكاد تنخلع من فرط الالهفة ، وفم جف يوشك أن ينشق من شدة الوله ، تعال ، تعال ، اننى أنتظرک منذ الأزل ! وأحس بجثة الميت تن بالحنين ونشوة المتعة ، وتهبط السكينة على الأرض ، ويطبق اطمئنان الوسن جفنيها ، قد تندى فمها ورطبت شفثاها . وعرفت الجثة معنى الأمن والدعة والراحة والنجاة ، سيذوب كل منهما فى ضمة الآخر حتى لا أدرى هل الأرض بقية من هذه الجثة ، أم الجثة بقية من تراب !

ولكن اصبر معى ولا تتعجل ، لقد أدركت من طول خبرتى للمقابر أن فى هذه الضمة هى أيضا ، سابقا ومسبقا ، فان الأرض

فى براءتها التى فطرها الله عليها يوم الخليقة تفتح للجنة صدرها كله ، وأقصى مدى لذراعيها ، وتنسى أن الانسان قد اكتسب فى الدنيا طبائع مستجدة ، لم تكن فى فطرته ، هى أقوى من غرائزه، مستعصية ، من الصعب قهرها ، فاليت لا يستسلم لضمة أمه الأرض الا شيئاً فشيئاً ، أول ما يزول عنه من هذه الطبائع هو الحقد وحب الانتقام ، ثم الطمع ، ثم الندم ، وآخر ما يفارقه هو الكبرياء، وهى تزول بعد أربعين يوماً، حين تنخفض عظمة الأنف، عندئذ ، وعندئذ حسب ، تفنى شخصيته ويتم اللقاء بين الجنة والأرض ، وتتابع فناء هذه الطبائع يسمع له صوت كالنشيش ، وبعضها يتطاير كالهوام ، وبعضها يدب كالذود ، وبعضها يتبدد فى أبخرة وغازات عفنة .

وتنهذ صاحب الحان ثم صمت ، بعد أن كاد صوته يصبح ضحيماً .

انتى من المؤمنين بأن للعلم ، وان خرجت شبكته بما تكره كما خرجت من قبل بما تحب ، نشوة القوة وبهجتها ، فما بال صاحب الحان وهو يعتز بعلمه يكاد يتفطر قلبه من الحزن ؟

تركته هو أيضاً لخالقه ، وهمت أن أقوم ولكنه أمسك يدي وأجلسنى من جديد بجانبه ، وقال وهو يشيخ بوجهه عنى :
— شىء واحد لم أحسب حسابه ، يوم أن ماتت زوجتى
اذ كان على أنا أن أدفنها .

ونخيم علينا الصمت وغاب كل منا عن دنياه ، ثم اقتبعت
والشمس في أوج السماء ، ففقت دون أن أنبس بينت شفة وعدت
الى داري •

ولذ لي ذلك اليوم أن أقلب أوراقى القديمة وأقرأ الرسائل
التي بعث بها الى أصدقاء أعزاء خلال ثلاثين سنة ، وهممت أن
أكتب لواحد منهم رسالة أضمنها وصيتى ، وما ينبغي أن يفعله
بأوراقى بعد مماتى ، ولكنى عدلت عن ذلك كله وشغلت نفسى
بقراءات لا علاقة لها ببلدنا وأهلنا وزماننا ، ولم الكتمان ؟ نعم
قرأت كتابا مطولا عن الخفافيش وطبائعهم ، أحببت أن يعود الى
هدوء النفس من قبل أن أخرج للجولة التي أضاعها على صاحب
الجان بحديثه •

٥ - حياة جديدة

اننى لا أكاد أصدق عيني ، لقد دبت فى قرينتنا حياة جديدة،
كان أهلها من قبل مستغرقين فى نوم عميق ، ألفوا فيه الاستكانة
والتوكل وقبول الضيم ، كلما تمللوا رأوا القيد يزداد انطياقا
عليهم • فوقر فى نفوسهم من فعل اليأس أن لا خير يرجى لهم ،
بل ثبت لديهم - وهذا هو البلاء الأعظم - أن لا خير يرجى منهم،
فلما لم يبق لهم هدف ، وضاعت ثقتهم فى أنفسهم وافتقدوا من
يقيم العدل بينهم ، مالوا الى النهب ، شأن الجماعات المضطهدة
المرهقة حين يختل الأمن ، وأصبح حلالا نهب أموال الجماعة ،
حتى حفظتها ، ان أمسك بعضهم بقية من ضمير عن نهبها تهلت
وجوههم بنشوة الاقتصاص اذا تركوا باهمالهم يد التلف والخراب

تعيث فيها ، وكم من مرة رأيت عاملا يتلف أدواته صائحا
« فلنحترق ، ولنحرق البلد كله » .

ومن لم يصل الي أموال الجماعة ، نهب مال من هو أضعف
منه ولم يكن دفاعهم عن أموالهم من النهب على يد من هو أقوى
منهم حمية وأتفة وعصيانا ، بل بالتدليس والتزوير والكذب
والحلفان بالباطل ، ومما زاد النكبة أن المال قد اضطرب تداوله
وأصبح فريسة مطاردة تتناوشها الكلاب ، أخذ يقل في يد الناس
شيئا فشيئا ، فعمت الفاقة ، وبعد أن كان على الجنيهاات نزاعهم ،
أصبح على القروش ، ثم على الملالم .

وقد شعرت وأنا أجول في القرية ودساكرها أن الناس قد
اتبهوا من نومهم ، أيقظهم تولى الأستاذ مقاليد الأمور في القرية
واقامته للقانون بين الناس سواسية ولما لمسوه فيه من اخلاص
للخير وانطباق العمل على النية ، أيقظهم أن الجبل الذي كان
جائما على صدورهم قد انزاح فجأة ، كما تنفجر الفقاعة .

لا أزعم أن القرية أصبحت تعيش في رغد وسلام ، بل يكفي
أن الناس جميعا أصبحوا يدركون أن هذا عهد جديد ، له مقاييس
وأحكام ، لا يغتفر فيها النهب . ولا ينجو المذنب بغير عقاب وحبل
الفساد غير ممدود ، وقد كان قلبي يتفطر على كثير من خيرة
الناس ، مالوا للباطل ، لا خبثا من أنفسهم بل لانسياقهم كالعميان
لما خدعهم ، من شيوعه وسلطانه ، فقد ارتد هؤلاء النفر الى

الرشد بغير تملل أو مشقة ، وكيف لا أعتبط لهم وقد أتيت لهم
النجاة ، وسلم لهم معدنهم الطيب ، وعفا الله عما سلف .

ولكن وقع اليقظة على بعض النفوس يجيء أحيانا كوقع
المفاجأة ، وليس أشق على نفس الذي ألف الاستعباد من أن
توهب له الحرية فجأة أو تلقى على كتفيه لأول مرة مسئولية تدبير
أموره ، ويقال له أنت سيد نفسك ، دافع عن حقتك ، وقم
بواجبك ، انه كان يطالب بهذه الحقوق ، يؤمن أن كل بلائه راجع
لحرمانه منها ويقول انها لو ردت اليه لتغير حاله في غمضة طرف ،
من الظلام الى النور ، فاذا واجه النور حين يعم عشيت عيناه .

فقد وجدت من أهل قرينتنا من يحمد العهد الجديد ، ولكنه
يلبسه كما يلبس ثوبا قشيبا لم تعرك بعد خشخشته ، ولا تلين
بداخله حركات ذراعيه وساقيه ، فهو يمشى ولكنه يتعثر ، ويتهيج
بما فاز ويضيق بجذته ، وقد يقارن أيضا بين قصور حركته في
الثوب القشيب وبين الراحة الموهومة في الثوب القديم الممزق
الذي خلعه وكان يكرهه أشد الكره .

لم أعجب حين وجدت هذه المعاني لا يوحى بها الى رجل
متعلم ، بل فلاح كادح ، فالفلاحون هم الذين فاقت قفزتهم من
أسفل الى أعلى قفزة غيرهم ، وكثير من هذا الغير قفز من أعلى
الى أسفل . . . لقيت هذا الفلاح عند الساقية فأسرع ودعاني

لمشاركته طعامه « ما أجمل كرم أهل بلدنا ! » ولكنه لم يكذب
يستريح لى حتى بدأ يقول :

— ان مالك الأرض — لعنه الله — قد كف يده عن مساعدتى
منذ تطبيق قانون الايجارات الجديد « كأنه يتعمد أذيتى ، أو أن
يثبت لى أننى لولاه خائب لا أفلاح » • فقد تسلمت هذه الأرض
بالايجار الجديد ولكن أين البذور والسماذ وهذا المال القليل
الذى لا يد منه لجنى المحصول ؟ أصبحت ينبغى على أن أسعى
لتوفير هذا كله ، وائتى أجده ولكن بعد سعى ومشقة ، كنت
لا أعرفهما من قبل ، اذ كان المالك يتولى هذا العمل •

هل سمعت ؟ ان بعض الفلاحين آثروا الاتفاق سرا مع الملاك
من وراء ظهر المجلس على زرع الأرض بالايجار القديم المرتفع ،
طمعا منهم فى نزع الأرض من يد منافسيهم ، ولأنهم يضمنون
مساعدة المالك •

فملأنى الغيظ ، ولكنى كتمته وقلت له :

— يا أخى ، أيرضيك أنت هذا ؟ يعطى لك جوهرة فترميها
بيديك فى الوحل ؟ أنتم أكثر الناس اتشاعا بخيرات العهد
الجديد ، كل فلاح الآن سلطان نفسه ، فليكن على الأقل رجلا
يعرف كيف يدبر أموره بحكمة وعقل ، لا تكربه مشقة أو جهد ،
أم تريدون أن تعيشوا عيالا فى الذل ، عيالا فى الحرية ؟

ولما فرغ الفلاح من شكايته الأولى ، أعقبها بأخرى ، وقال :

— ومتى ننعم بالرخاء الموعود ؟ حتى آكل مثل الحكام لحما
كل يوم لا مرة كل أسبوعين ؟

فأجبتُه وأنا أهم بالقيام :

— هذه مسألة في يدك ، والدنيا أمامك — حين تحسن
زرع الأرض ، فيجود محصولها ، وتحسن زرع الخضر والفاكهة ،
وتربية الدواجن ، والنحل ، وتحسن نسج الصوف ، فليت كان
سؤالك اذا ، متى أتعلم مثلهم ؟

وأخذت أفكر وأنا عائد لداري في أعوان الأستاذ الذين
التفوا به يوم أن ألقى خطبته الأولى ، أغلب أعضاء المجلس
القروي منهم ، كلهم من الشبان كنا نراهم من قبل فلا نظن أنهم
على شيء ، أو أنهم قادرون على النهوض بعبء كبير يحتاج الى
سلامة الجسم والعقل معا ، ولعل بعض الشيوخ ممن يعتزون
بتجربتهم كانوا لا يابهون بهم . فلما برزوا رأيناهم قد صمدوا
للعبء ، وبذلوا من الجهد ما تنوء به الجبال . لم يطلبوا مغنبا
لأنفسهم ، بل جزاؤهم أنهم يخدمون عشيرتهم ما وسعتهم الطاقة
لقد مر بقريتنا عهد متالية لا يدير أمورها الا الشيوخ ، فكنا
نسير على مهل ، مؤثرين الراحة ، وترك القديم على قدمه ،
برامجنا كلها تطور بطيء ، اذ كنا نخشى الطفرة — ولا جرم أنه

من الخير أن يتولى أمر القرية زمرة من الشبان ، حتى يكسبوا
لنا ما ضاع من الوقت ، حتى يهدوا و يبنوا •
وعدت الى داري متعبا ، ولكنني فرضت على نفسي أن أخرج
مبكرا في الغد لأدور على أصدقائي ، وقد رايتني أن أحدا منهم
لم يأت لزيارتي •

٦ - القزم

لم أتعب فى البحث عن القزم ، فما كدت أخرج من دارى
مبكرا وأسير خطوتين حتى رأته قادما صوبى ، يمشى بخطوة
نشطة فلما انتهينا من السلامة والعناق قلت له :

— أين تذهب فى هذه الساعة ؟ كان العهد بك أنك لا تخرج
لعمالك الا عند اقتراب الظهر •

— كان هذا من قبل ، أما اليوم فانى أحرص على أن أخرج
من دارى فى الصباح المبكر •

— وهل هذا سر تورد خديك ؟

— أهم سبب أن المولى تاب على ولم أذق الخمر منذ اغلاق
الحان •

دققت النظر اليه ، فوجدته فى ثيابه القديمة التى أعرفها
— بل رأيت حلته لامعة ، وقميصه ممزقا مرفوفا ، وحذاءه باليا •

— أين الأناقة ؟ كنا نراك كل يوم فى حلة جديدة ، وربطة
عنق غير التى تلبسها بالأمس •

— انتى الآن مشغول بما هو أهم ، انظر ، سأشرح لك
الأمر •

وأخرج من جيبه ورقة وقلما ورسم لى عليها موقع أرضه
وسط جيرانه وقال :

— انظر ، هذه هى الأرض التى أملكها ، هل ترى بعدها
عن المصرف ، هذا هو سبب رداءة تربتها وقلة غلتها ، وهذه
الأرض التى تفصلنى عن المصرف ، واقفة لى كالعظمة فى الزور ،
كانت فى الأصل من أملاكنا ، فأضاعها آباؤنا بحماقتهم وسفاهتهم
وكانت أرضنا مربعة الشكل ، هى خير أراضى القرية فأنا الآن
لا أفكر الا فى استرداد هذه الأرض ، وأن أرى أرضنا عادت
مربعة كما كانت •• كأن الجزء الناقص مقطوع من قلبى •• اذا
عادت لى سأكون أسعد خلق الله • ومن أجل ذلك قررت — أنا
وزوجى — أن نوفر كل قرش وكل مليم لشراء هذه الأرض •

اننى لم أكتبه لحماقتى الا أخيرا ، كنت لا أفرق بين الجنيه والقرش ، يدى مخروقة ، يسبب منها المال مهما كثر ، بعثرت شمالا ويمينا ، كالمعتوه المأفون ، المال نعمة ، ينبغى أن تصونها وتعرف قدرها ، والمال الذى يصرف عبثا ضاع منك الى الأبد ، ولا يعنى به من أخذه ، لأنه جاءه بغير جهد ولا مشقة ، فكما جاءه طائرا يفارقه طائرا ، فما انتفعت ولا نفعت ، أنت لا تدرك مبلغ لذتى حين أمد يدى فى جيبى فأجد النقود فيه ، وأحس بها تزداد يوما بعد يوم .

— وزوجك؟ ما خبرها؟ وماذا تفعل بفقرائها وأيتامها .

— لقد انتهى بيننا ، منذ اغلاق الحان ، كل نزاع وخلاف وتوحدت أهدافنا وخططنا . . . وهى الآن تضع كل ايرادها فى صندوق لا يخرج منه قرش واحد .

ان الاحسان بثر عميق لا يعرف له قرار ، ما الفائدة من أن تعين انسانا اليوم بقرش أو حتى بجنيه فماذا يكون شأنه غدا؟ هل تصرف عليه طول العمر؟ واذا وجد محسنا غيرك فى غد فلماذا لا تتركه له اليوم ، ما الفائدة من مساعدة واحد أو اثنين ، أو حتى عشرة أو عشرين ، وهناك آلاف غيرهم من البؤساء . فما معنى أن تساعد انسانا وتحرم آخر . . . هل أنت مقسم الأرزاق؟ ولو طال الحال بزوجى لافتقرت هى ولم يغن من مالها أحد ، كفاها ما فعلت

هى أيضا من تبديد مالها ، تحسب بذلك انها تردنى الى الرشد ،
وها قد عاد الى صوابى بفضل اغلاق الحان والحمد لله ..

لقد طردنا الخادم وأصبحت زوجى هى التى تطبخ وتغسل
وتكنس ، فلم يبق لها وقت للخروج من الدار ، وهى لا تغضب
اذا لم يزرنا أحد من أصدقائنا ومعارفنا . قد أوصدنا الباب علينا،
ونحن نعيش سعداء ارتقابا لليوم الذى نحلم به ، يوم تبيع
الأرض .

ومد يده ليصافحنى ، يريد الانطلاق لعمله ، ولكنه لم
يفارقنى الا بعد أن قال لى :

— هل معك لفافة تبغ لى ؟ اننى نسيت بسبب اسراعى أن
أشترى حاجتى اليوم .

٧ - زوج العرجاء

أصاب المجلس القروى عصفورين بحجر واحد ، فمن المبادئ
التي التزمها وصلاح عليها حالنا بعد فساد وضع الرجل فى المنصب
ولياقة المنصب له • ليس هذا الرجل ذاته ، فهو آخر من يصلح
لاصدار حكم فى قضيته • وقديما قالوا : اعرف نفسك ،
لا يسألون بها تحقيق ما يطلبون ، بل هو التدليل بأبلغ مثال على
عجائب النفس البشرية التي تضمها بين جنبيك ويستعصى عليك
فهمها - وعلى الشيء يبدو سهلا يسيرا وهو فى الحقيقة شاق
بعيد المنال • فليس هناك شئ أبعد عن طاقة الانسان من أن
يعرف نفسه ، والرجل ليس الرجل كما يرى نفسه ، بل الرجل
كما يراه الناس ، فاذا انطبق أحد الرجلين على الآخر كانت السعادة
للأنوف والمهانة للدليل ، أما اذا افترق أحد الرجلين عن الآخر ،

فهو العذاب ، يزداد بازدياد الشقة بين الرجلين ، للطامع بحق ،
وهى الغفلة للطامع بغير حق ، والتلذذ بالخديعة والهزء بالناس
للمحتال الأفاق الذى يصوته ذكاؤه من عمى البصيرة •

فكان من الخير أن لا يأبه المجلس القروى فى شغل المناصب
الا برأيه هو ، فان هذا أدعى الى ايجاد مستوى متسق للموظفين،
بعد أن كان فى الماضى مضطربا بين الغلو فى الارتفاع والغلو فى
الهبوط • قد يقال ان المجلس - وهو بشر - يصيب أحيانا
ويخطئ أخرى ، ولكنه أثبت أنه يعدل عن خطئه حين يتبين له ،
ويجرب مرة وأخرى الى أن يظفر بحاجته •

والمبدأ الثانى ، أن البطالة خلل فى كيان المجتمع - ينبغى
أن يقضى عليه - أيا كانت الوسيلة •

فلما اتسعت أعمال المجلس القروى ، كان لا مفر له من مخزن
كبير ، تودع فيه الأدوات ومواد البناء ، وتبينت فيه عربات
الكنس والرش والمخزن مطلوب له أمين يتولى أموره ، فهذا عمل
يحتاج الى رجل له خبرة فى التجارة والسباكة والبرادة فاذا أضفت
الى ذلك أن زوج العرجاء عاطل تبينت لماذا اختاره المجلس ليكون
أمين المخزن •

علمت هذا عند عودتى للقريه فسعيت الى زوج العرجاء فى
مكان عمله • فرأيته جالسا فى ركن من مخزن عميق مظلم مزدحم

أمام مكتب عليه أوراق وملفات تكاد تبلغ سقفه الواطيء ، ورأيته هو أيضا يرتدى بذلة صفراء فوق قميص له ربطة عنق كذيلي الفأر .

سألته أولا عن زوجه فأجابني وهو يضحك :

— انها بخير ، وهي دائمة السؤال عنك ، ولا تزال تعمل كما تعهدنا ، ولكن قصادها أصبحوا من العمال ، فقد كثروا الآن في قرينتنا ، وهي بهذا التحول أسعد وأهنأ لأنها كما تعلم تحب الفقراء أمثالنا، لسذاجتهم وطيبتهم، ولأنهم أكثر من غيرهم نسلا، فهي تحب أن تأتيها امرأة ووراءها ثلاثة أولاد .. وهي تضحك معهم كثيرا .

ثم استأذنتني لحظة وتناول دفترًا كبيرًا وفتحه ليقيده فيه خروج عربة يد ، وأخذ يسألني وهو لا يدير نحوي رأسه ولا ينتظر مني جوابا :

— هل كان البحر هائجا أم ساكنا ؟ وهل رأيت أنواعا غريبة من السمك ؟ .. لقد وضع المجلس القروي لهذا المخزن نظاما دقيقا ، فانه لو لم يفعل لاختل أمره واضطرب ، وأصبحنا لا ندرى ما بقى وما تلف وما خرج وما دخل ، والطيور ؟ أى الأنواع رأيتها ؟ انظر الى هذه الاستثمارات هي معدة لأن يقيد فيها كل شاردة وواردة ، هل الحقول هناك أجمل من حقولنا كما

يقولون ؟ •• فاذا جئت صباحا قمت بمجرد المخزن وأثيت محتوياته
فى هذا الدفتر ، فاذا ظهر عجز حررت استمارة من هذا النوع ،
واذا ظهرت زيادة حررت بها استمارة من ذلك النوع • وهذا
الدفتر أقيد فيه أسماء العمال وساعة حضورهم وساعة انصرافهم
للعمل وعودتهم منه • وهذا لاثبات حال العربات واذا علمت أنتى
مكلف أيضا بتصليح هذه العربات وترميمها أدركت كم ساعة
اشتغل من الصباح للمساء • ولكنى أحمد الله ، وأريد أن أكون
جديرا بثقة المجلس القروى ، وأن أبيض وجهه ووجهى ، لقد طال
عشى فى الماضى ، وآن لى أن أعمل بجد كما يعمل كل الناس
اليوم •

— وماذا تفعل يوم الجمعة ؟

— أقضيه فى الفراش ، لأستجم •

ولما صافحته وأنا أهم بالانصراف ، وجدت يده هى هى ،
قطعة من قلبه ، وعينه هى هى ، صفاء واشراقا •

٨ - القصاب

تجمعت عندي من هنا وهناك منذ عودتي للقرية أنباء القصاب وما جرى له بعد سفرى ، فعلمت أن كثيرا من الشكاوى الغفل من الامضاء قدمت فى حقه الى المجلس القروى ، وقد صعب انشاء المجلس ازدهار هذه الشكاوى من مجهولين ، وهى حار المجلس لا يدري ماذا يفعل فيها ، لو صرف وقته لتحقيقها كلها لما فرغ لعمل آخر ، ولو أهملها ل قيل انه قعد عن رفع المظالم ، ورضى أن يظل المجرمون مطلقى السراح ، ولو بحث بعضها دون بعض لاتهم بالتحيز ، وكلف المجلس بعض أعضائه للنظر فى هذه الشكاوى ، فتبين لهم كذب أكثرها ، وضاعت الشكاوى المقدمة ضد القصاب فى هذا السيل المنهر ولم يسأله أحد عن شيء ،

ولكن الناس لم يتركوه ، بل كانوا يطوفون بداره ودكانه ، ويشيرون اليه بالسبابة ، وهو صابر لا يفعل شيئا ، وسمع ذات يوم أنهم ضربوا صبي الطحان حتى كاد يتلف .

وانخطف لون السمراء وهزل بدنها . وكانت تأوى الى ركن من حجرتها ، جاثية على ركبتيها ، مطأطئة الرأس ، طول النهار ، لا تنقطع عن التفكير . ماذا فعلت بنفسها ؟ وماذا فعلت بزوجها ؟ وماذا فعلت بصبي الطحان ؟ كل هذا بسببها هي . كيف الخلاص وماذا تفعل ؟ انها لن تستطيع أن تخرج للطريق بعد ذلك ، اذا لم يبق أمامها الا الهرب مرة أخرى ، ولكن ماذا تفعل بأولادها .

وقامت من فراشها ذات ليلة واتجهت الى فراش أولادها ، وقبلتهم واحدا واحدا ، وجمعت في ربطة بعض ثيابهم اللصيقة بلحمهم ، ثم فتحت الباب خرجت الى الليل .

وفي الصباح علمت القرية نبأ هروبها مع صبي الطحان ، وأنها تركت أولادها للقصاب ، فقال بعض الناس : عادت ريمة لعادتها القديمة وقال آخرون : سحقا لها ، انها كشواذ الطير تبيض في أعشاش غيرها ، أتضحى بأولادها من أجل هواها ؟ ولكنهم لم يروها وهي تقبل أولادها ، ولم يروها وهي لا تأكل في تجوالها مع صبي الطحان سعيا للرزق من بلد الى بلد لقمة دون أن تبللها بدموعها ، ولم يدهش أبناء القرية حين رأوا القصاب يسكت عنهم ويظيل ترده على المسجد لا يترك فرضا .

ولم أشأ أن أقابله فى دكانه ، وفضلت أن انتظره على باب المسجد حتى رأيتـه خارجا ، قد أضاء وجهه واستراحت قسماته ، فتقدمت إليه ، وسلمت عليه ، فوضع ذراعه فى ذراعى وقال : تعال نسير معا على شاطيء التـرعة •

ولما سرنا قليلا أنشأ يقول :

— عجبت لرجل يترك الهم ينخر قلبه ، والحزن يضنى فؤاده ، وشهوة الانتقام تقض مضاجعه ، وباب الصلاة مفتوح أمامه ، لقد كدت أتلف من شدة الغيظ ، لولا أن هدانى الله ، وحبب الى الصلاة ، وهى كل ما بقى لى الآن •• فانى لا أذكر أيام الحان الا اعترانى الخجل ، وحمدت الله على اغلاقها •

وقد شعرت أول الأمر بشد وجذب بين الصلاة وسموم النفس فكنت أنتزع بجهد عسير من الغيوم المحيطة بى لحظات مشرقة أقف فيها أصلى ، حتى اذا فرغت صلاتى أطبقت على الغيوم من جديد ، الى أن يحين موعد الصلاة التالية ، وهكذا ••

وكنت أتمتم بالآيات كالبيغاء ، لا يكاد يبين لفظى ، تنكشف أمامى معانيها دون أن تصل الى ذهنى وقلبى ، ولكن صبرت وثابرت ، وأخذت أتلو الآيات على مهل ، راشفا معناها ، فتتزل على قلبى بردا وسلاما واتسعت اللحظات المشرقة وتضاءلت معها سموم النفس شيئا فشيئا ، فقد كنت أحمل نفسى قسرا فى لحظات الصلاة،

على الرضا بحكم الله ، والتوكل عليه ، والالتجاء اليه ،
والاستعاذة به ، فتقنع نفسى ، أو تبدو لى قانعة ، ثم يتبخر كل
هذا فور أن أخرج للناس واضطرب بينهم •

ولكن الايمان مع الصبر رسخ فى قلبى قليلا قليلا ، وأصبح
يومى كله صلاة صامته ، تقطعها صلوات ناطقة يراها الناس ، فأنا
الآن هادىء النفس ، والحمد لله ، مطمئن الضمير ، وأصبحت
أجد لذة لم أعهد لها من قبل فى طعامى وشرابى ، اننى الآن كقطعة
من المغناطيس الذى لا يلتقط من الناس الا معدنهم الطيب أما
الخبث فهى عنه مزورة ، وقد رأيت الكثيرين لا ينفعهم ايمانهم
حين يعاملون الناس فيظنون فيهم الشر بادىء ذى بد ، أو ان رأوا
فيهم شرا وخيرا غلب الشر على عيونهم أو بقيت ذكراه فى مؤخرة
رؤوسهم وهم يعاملون الجانب الطيب من الناس ، فلا تزال قلوبهم
منقبضة ، والقول بين بين ، لا هو خداع ولا هو صدق • اذا لم
يأتوا بمعصية فما كسبوا ثوابا ، وكان ايمانهم كالنميمة ، توضع
على القلب ، وهى ليست منه ، ولكنى استطعت أن أغمض عيني
عن الشرور جميعها ، وحبست نفسى فى دائرة الخير ، فوجدت
فيها ، وان قل مداها ، سعة تتيلنى كل ما أريد ، ولا يفوتنى شىء
أتأسى عليه • ولو أصاح صاحب الحان سمعه حين يحملنى بين
يديه لعجب لتهللى وتسبيحى • • • • • عد بنا فقد حان موعد الصلاة •
تركته على باب المسجد ، وسرت الى الدار ، وأنا أتطلع تارة
للناس وتارة للسماء •

٩ - الفتى الفنان

كنت أحسب أنني لا أجد الفتى الفنان فى القرية عند عودتى إليها . وظننته قد سافر للعاصمة هربا من وجه أبيه كما قال لنا ذات يوم فى الحان ، ولكن لم أعجب حين علمت أنه لم يبارح القرية فقد مضى عهد انشغال الفرد بنفسه ، فنحن الآن فى عهد مصلحة المجتمع قبل مصلحة الفرد .

لقيته فى متجر أبيه ، ووجدته جالسا على مقعد قد أحنى ظهره ليصل وجهه الى وجه صبي فى السنة الأولى من العمر ، واقف أمامه وهو يلعبه ، ويضع فى فمه قطعة من الحلوى ، لحظة ثم يخطفها ثم يضعها فى فمه من جديد ، وهو يضحك ملء شذقيه . ويندلق على وجهه البشر والسعادة والمرح ، خلت أنتى

أرى عصفورا يزق أفراخه وهو مشهد أحب أن أراه ، وأن أتأمل
منقار الأم - ضئيل بالنسبة لجسمها - يندس برفق ، على غلظه ،
في منقار طالب منشق ، يبدو كأنه أكبر من منقارها ، إذا قيس
إلى جسم الفرخ ، فاذا رأيت هذا المشهد لا أنساه سريعا . فلما
وجدنى الفتى أمامه هب واقفا ورحب بى وقال :

- أقدم لك ولى العهد ا رزقنى الله به منذ سنة ، فأصبح
هو كل دنياى . لو رأيت ابتسامته وسمعت ضحكه وعجيب نطقه
ومنطقه لقضيت معه النهار بأكمله وأنت لا تسأم ولا تمل . ولو
رأيت أيضا كيف فرح أبى به ، أصر يوم مولده على أن يضيف
اسمى وراء اسمه على لافتة المتجر ، ولعلك رأيتها وأنت قادم ،
وانى أرى من وراء الغيب اسم ابنى هذا يجىء وراء اسمى ذات
يوم .

أتعرف ! أن الانسان لا يحس بوجوده الا اذا رزق الولد ،
انه من قبل كالمطر ينحدر على التلول ويتفرق فى الوديان ولا تعلق
قامته فى مكان رغم غزارته ، ثم انظر الى الولد حين يعانق أباه
تجد ذراعيه كالضفتين تحتجزان هذا الماء المضاع فيصبح نهرا له
حياة معلومة ومجرى مرسوم ومبدأ وغاية .

فقلت له بصوت خافت ، وأنا لا أسامح نفسى :

- الموسيقى وألحانك ؟

فأجابني بعينين ضاحكتين :

— لقد فتح لى العهد الجديد فى القرية آفاقا أخرى وهدانى
للواجب والصواب اذ وجدتنى ذات يوم أقول لنفسى : أنت أسير
الموسيقى فلماذا لا تكسر القيد ، وتجعلها أسيرتك ؟ انك صريع
قوة طاغية تنهش قلبك كالعقاب ، ولا تدرى كيف ينتهى بك
الحال . ولو سرت فى هذا الدرب الى غايته للحقت بزمرة
الموسيقين الذين تنتهى حياتهم بالانتحار أو الجنون . فأحسست
عندئذ أننى كنت أسير على غير هدى ، حتى وقفت على حافة
الهاوية ، ورددت نفسى أما اليوم فأنا غاو ، كل موسيقى يعزف
لى ، أختار ما أشاء ، حين أشاء . لا عذاب ، ولا جرى المخبول
وراء لحن لم يولد ، ليلة اثر ليلة ، لا يغمض لى فيها جفن ،
ولا ينقطع تجوالى فى الطرقات والحقول والحانات . أصبحت
الآن أنا السيد لا المسود ، كنت أعيش فى الموسيقى ونفسى
كالبحر الخضم الثائر ، أما الآن فأنا أعيش فى الموسيقى ونفسى
كالبحيرة الهادئة ، ولعل رضائى بأن أكون غاويا هو الذى مهد
لى السبيل للتقرب من ملحنين كنت أتعاشاهم خشية أن أقع تحت
تأثيرهم وأتهم بتقليدهم ، وملحنين آخرين كنت أزور عنهم
وأحذفهم — يا للغرور — من قائمة الفنانين لأنهم من غير مذهبي ،
أما الآن فكلهم أصدقائى ، فى كل منهم ناحية من جمال ، ولكن
هل تريد أن تعرف ألد نعمة عندى ، هى ضحكة ابنى وأنا أوقظه
فى الصباح وأقبله وأزغزغه .

تركته وأنا أقول : هؤلاء الفنانون ! ان الحياة تبسم لهم
دائما على أى جنب رقدوا ، لأن الفن هو قبل كل شىء عنوان
غنى النفس ، واتصالها الوثيق بالكون والحياة . ولكن لن
يخفف من حسرة عارفيه على فقدان هذا البليل الصداح أن يعلموا
أنه نجا بنفسه ، فجمهور الفنان لا يعنى الا بانتاجه ، يطلب المزيد
والمزيد منه ، ولا يهمه هل تحطمت نفسه أم لم تتحطم .

١٠ - لقاء الأستاذ

لما عدت الى دارى وجدت رسالة من الأستاذ يدعونى فيها لزيارته فى ساعة معينة من الغد ، فحدثت الله أن مقابلتى له ستتم تلبية لطلبه لأننى آتف أن أندس وسط المتزاحمين على بابه ولو كان قصدى أن أسلم عليه بعد عودتى من السفر الطويل ، وقد يحسبني الناس أننى اتملقه ، وليس لى مطلب عنده .

ولم أستطع أن أمنع نفسى من معاناة الحيرة فى فهم سبب دعوته لى ، وكان أقرب الاحتمالات الى ذهنى أنه يريد أن يسألنى عن مشاهداتى فى رحلتى الأخيرة .

ودخلت عليه فوجدت بعض أعوانه يحيطون به احاطة القيد بالمعصم . يعرضون عليه فى اهنمام بالغ أوراقا كثيرة ، أشار الى

أن أنتظر قليلا حتى يفرغ منهم • أكثر هذه الأوراق يتعلق بمسائل ليست بذات خطر ، وكان ينبغي أن لا تصل الى الأستاذ فيضيع في معالجتها وقته وذخر أعصابه وذهنه ، وتذكرت كيف أنه جعل من ضمن برامجه حين بدأ عهده في القرية أن يختار لكل عمل من يصلح له ، فيوليه ثقته ويحمله مسئولية انجاز هذا العمل على خير وجه دون حاجة للرجوع اليه • فما الذي جرى بين أمس واليوم ؟

وشغلت نفسي بالتطلع الى الأستاذ وتأملت ابتسامته التي لا تفارقه كجهدى به ، لقد كانت من قبل وليدة العزم على الصمود للجهد الجبار والأعباء الجسام ، هي سفير قلب كل مطمعه أن يهب نفسه ، أما اليوم فقد خال لي أنها أصبحت مظهر فهم عميق للناس ومنازعتهم وأهوائهم وأطماعهم ، هي وليدة انتباه لهذا الخط الدقيق - يكاد لا يرى - يفصل بين الخير والشر ، فلا عجب أن خالط هذه الابتسامة شيء من المرارة ورأيت عينيه تبسمان مثل فمه ، ومن تحت الابتسامة شيء من الملل كأنه يفهم حديث كل قادم من قبل أن ينطق به ، ومع ذلك ففرض عليه أن ينصت له من أوله لآخره. انصت المفاجأة به •

وجمع الأعوان أوراقتهم وهموا بالخروج فاذا بالبواب يفتح ويعلن علينا أن وفدا من أهالى القرية قد جاءوا لمقابلة الأستاذ، وأن لهذا الوفد رئيسا هو الذى جمعهم وساقهم • ودخل الرئيس

يخب في ثوبه المقلّم بالأحمر والأخضر كريش الديك • هل عرفته ؟
انه واعظ القرية ؟ وسلم وحيا ، وتقدم وتخلف ، وانحنى وقام ثم
صف الوفد من خلفه بحركات سريعة مطاعة من كفه فتقدم الأهم
على المهم ، تنحنح وقال بصوت جهورى مخاطبا الأستاذ ، ملتفتا
الينا جميعا :

« نعم العمل عملك • هكذا تكون الحكمة والسياسة وبعد
النظر كأنك ترى من وراء الغيب ! وان هذه القرية لم تسعد الا فى
عهدك الزاهر ، فأنت الذى تدرأ عنها الأخطار والمتاعب ، عهدك
كله خير وبركة ، لا حرمانا الله منك • اننا لولالك لا نساوى شيئا ،
أدعو الله فى كل ركعة أن يطيل عمرك ويوطد مجدك » •

وأحسن الأستاذ استقبال الوفد ، وشكرهم وهو يحدق فى
وجه كل واحد منهم كأنما يحدثه من أعماق قلبه ويريد أن يوقظ
فيه نائما وأجاب على خطبة الواعظ بكلمة قال فيها ان كل شىء
سيرتد للفساد اذا لم يحسن كل منهم الانتفاع بالاصلاحات التى
تمت فى القرية والدفاع عنها كأنه هو بالذات صانعها والمنتفع بها •

وانصرف الوفد وعاد الأستاذ الى مقعده واستدار نحوى
وان رأيت نظرتة تتخطانى كأنها تنظر من ورائى الى شىء بعيد ،
ومع أننى كنت قد عقدت العزم على أن لا أبدأه الكلام وأن أنتظر
فأرى ما سيقوله لى الا أننى وجدت نفسى بالرغم منى أقول له
— والغيظ هو الذى حل عقدة لسانى :

– يخيل الى أنني سمعت من قبل كلاما لا يماثل فحسب بل يطابق ما سمعته اليوم كلمة كلمة ، ويخيل الى أيضا أن قائله هو الواعظ نفسه وأنه قاله في مدح عهد ولي وانقضى ••

فاقتصر ثغر الأستاذ عن ابتسامة متهلة وقال :

– أتحسبني مغفلا ؟ أتظن أنني آكل من هذا الهراء • نعم
اننى أعلم أن الواعظ قال مثل هذا الكلام لمن سبقنى • وليس
هو وحده بل غيره كثيرون •

– ولماذا تسكت عنهم ، فيظن بعض الناس أن هذا الكلام
ينطلى عليك •

– اننى لا أحب أن أغش الناس أو أخدعهم • فقد أصل بعد
مشقة الى القضاء على التملق الناطق ولكن كيف يشعر الناس
بأننى سأظل مع ذلك محاطا بأنواع لا حصر لها من التملق
الصامت •• أهل الخيرة الذين لا يفصحون بأرائهم خشية اغضابى
متملقون ، ومن يشد على يدي كأنه يقول لى : أنت بطل ويمكنك
الاعتماد على ، متملق ، ومن يقذف فى وجهى فى كل مناسبة بأنه
لا يتملقنى متملق •• فالمسألة كما أصورها لنفسى ، هى هل كلام
الواعظ وأمثاله يؤثر فى أم لا يؤثر • وهل يجعلنى أعدل عن
قرار اتخذته أم أن أحابى انسانا على حساب انسان ! كلا !

فصمودى أمام هذا النفاق هو العلاج العملى الوحيد فى نظرى
لاسقاط قيمته بين الناس ..

ثم صمت الأستاذ قليلا وقال لى وهو يتسهم :

– وأنت ؟ قد بلغنى خبر جولاتك فى القرية ودساكرها
وحديثك مع الكناس وجندى المطافىء والفلاح وأصدقائك
السابقين من رواد الحان ، بل بلغنى أيضا أنك تكتب مذكرات ،
وقد اطلعت على بعض نصوصها ..

لا شك أننى فوجئت بهذا الكلام وحررت كيف أقول ، لقد
كنت مترددا بين العجب كيف وصلت أبناء كل حركاتى للاستاذ ،
بل كيف وصلت اليه أوراقي ، وبين الشعور بالضيق حين وجدت
نفسى فجأة مكشوف الستر بعد أن كنت أحسب اننى أسير فى
الدنيا فى مأمن من الرقباء .

ولزمت الصمت برهة ثم قلت له بهدوء :

– لا أظن أن الحقيقة قد بلغتك بغير زيادة وتهويل وتحريف
ولكنى واثق أنك لسابق علمك بأسرار أخرى ، وكثرة معاناتك
لأمثال هذه التبليغات قد استخلصت لنفسك الصدق والصواب
والنفع من وسط قشور الكذب والضلال والغشاة .

– ماذا ؟ تحسبنى كنت لا أعلم ما سيقوله لك هؤلاء الناس
ولا بما سيحدث لأصدقائك رواد الحان ؟ أصبح لكل انسان

رأى وهذا خير وان حسبه الغافل بلبلة ، ونحن نفتح صفحة جديدة ، ولا نرفع الصفحة السابقة بخطفة واحدة فليس هذا مما تحتمله دنيانا ، فلا مفر من أن يسقط شيء من ظل الصفحة السابقة على الصفحة الجديدة . ولكن سيأتي وقت قريب تنقشع فيه كل الظلال ، تحسبني لم أتألم لما حدث لبعض الناس من جراء تنفيذ برامجي ! اذا أنت لا تعرفني ! ولكنى لا أعامل الأفراد ، بل أهل القرية كلهم ، وقد يسقط بعض الأشخاص صرعى عن شمال وعن يمين ولو وقت أرثى لهم لما سار الركب أبدا . . ثم انتظر ، أن الحياة عجلة لأنتى عن الدوران ، وستعود فتلقظ هؤلاء الساقطين على هيئة جديدة ، كما شاهدت أنت بنفسك . فماذا تريدنى أن أفعل . وكيف تختتم مذكراتك ؟

كان قلبه هو الذى يتكلم ، الصراحة رائده ، والحق مطلبه، فوجدت الحجرة كلها كأنما انزلت عن ضوضاء العالم وارتفعت بنا عن الأرض لنعيش فى سماء ذات أضواء مشعشة صافية . انفك عقال لسانى ووجدتنى أقول له بصوت هامس . وأنا أعجب كيف يصدر منى هذا الكلام بغير عناء مرتبا كأنما انطوت عليه نفسى زمنا طويلا على غير علم منى ، فلما آن الآوان نطقت الشفتان :

— سأقول لك كلاما لعلك تدهش له وتعجب . ان محبتى للقرية هى التى جعلتنى لا أنقطع من التفكير فيك لحظة واحدة

لا بليل أو بنهار ، ان أخبارك لم تصلني كلها ، وقد انقطعت عن القرية زمنا طويلا ، ولم أعد اليها الا منذ قليل ولم أقابلك من سابق الامر واحدة - ومع ذلك فان نفسي تسجل كابر البوصلة كل هزاتك وتحولاتك ، ما أظن ان مرت بك مشقة أو أجهدك ضيق الا أحسست به . . لقد جئت مفتوح الذهن واليد والقلب ، حسبت قبل الاقدام فوجدت كل شيء سهلا ، ولكنك لم تك تدفع في العمل حتى رأيت مسائل القرية كمنازلها متساندة وكلها متداعية ، اذا سقط منها واحد تساقطت جميعا من ورائه ، فضربت ضربتك الأولى ، التي لم يكن منها مفر والتي كسبت من أجلها الحمد بين الناس والثواب والعاقبة عند الله ، سارعت فحجزت بين ذراعيك أقصى ما تستطيع لتحميه من التداعى وراء أكبر نصب يسقط ، وكان يحز في نفسك أن من حول ذراعيك مسافة أخرى تساقطت معالمها هي أيضا ولعل بعضها كان يمكن اصلاحه ولعل بعضها كان ينفعك ولكن لم يكن مفر من أن تتركهم يتساقطون لأنك في حاجة الى الحيز الذي خلفوه لتعيد من جديد ترتيب ما ضمته ذراعاك في حرية وسعة .

وكان لا بد لك أن تنسى الذي حدث لتفرغ لما هو قادم وان تأملت من أن هذا النسيان قد يبدو لبعض الناس في صورة القسوة وغلظ القلب .

ثم لم تك تدأ في علاج أول مسألة حتى رأيتها مرتبطة

بأخرى ، وهذه بثالثة ، وتلك برابعة وهكذا . لو اقتصرنا على علاج أولى المسائل لقليل انك لم تفعل شيئا ، ولو عالجت المسائل جميعها لما استطعت أو قيل عنك انك تخدع الناس ، فحرت كيف تصل الى الوسط بين الطرفين ورأيتك تتلمس طريقك ، وكان قلبى معك .

وعلقت أملك على أن أثر الجهد المبذول نوعان : مباشر يقاس بقدر الجهد ، وثانيهما غير مباشر وزائد عن قدر الجهد ، يأتي من أن بجانب هذا الجهد جهودا أخرى مبذولة لا مفر من أن تتفاعل فيما بينها ، فكما أن البناء يتداعى بعضه لبعض ، كذلك يقيم بعضه بعضا ، وكلما زادت الآثار غير المباشرة استطعت أن تزيد من عدد المسائل التي تعالجها ولكن شرط هذا هو البناء على أساس متين والمثابرة ، وينبغي للمثابرة أن لا تختلط بالعناد أو إباء الرجوع عن الخطأ اذا تبين ، عجزا أو كبرياء ، وكنت أدعو الله ان يجنبك هذه الشبهات .

وراقبتك من بعيد ، وقلبي يخفق ، وانت تساق شيئا فشيئا الى اغفال عزمك فى الابتعاد عن تولى المناصب ، فقد حكمت عليك الظروف وحرصك على الصالح العام أن تتولى الدفة بنفسك ، فتكسب الوقت ، لا يلتوى الطريق أمامك ، وتظهر للناس سافرا فيزيد نجاحك من ثقتهم فيك . ودعوت الله أن يزيد من حلمك وصبرك بقدر ما زاد من مسئوليتك وان يروض

نفسك على قهر الغضب والامتعاض والألم كلما سمعت نقدا ليس
من ورائه شهوة رخيصة .

ورأيت بعض أصدقائك المقربين ممن وثقت بهم كل الثقة
قد حادوا عن طريقك فأقصيتهم عن الركب ، وكنت تحسب أن
الإخلاص الذي ربط بينكم يقوى على غوائل الزمن والنفس ،
وكنت أدعو الله أن يجنبك الشعور بالمرارة لتبقى نظرتك للناس
أظهر ما تكون من الشوائب .

كل شخص جاءك اما يشكو من ظلم وقع عليه أو يشيد
بمجهود بذله ، ودعوت الله أن لا يقلل هذا الضعف فيهم من
تقديرك لكرامة الناس عامة .

ولكن لعل أكثر ما كان يشغلي هو معاملتك للناس ، أردت
أولا أن تسير اليهم وتلقاهم وتتركهم يحيطون بك ثم سرعان
ما تبينت أن النظرة القرية غير صادقة ، وأن العدد تفصيل ،
وأنت مشغول بالمبادئ والعموميات ، وأن الوقت ثمين ينبغي أن
يحتجز للتأمل والتدبر فاذا بك تقسر - وهي غير راضية - على
أن تنخلع عن الناس ، فكأنما تقيم بينك وبينهم سدا لا يتجاوزونه،
حتى يسلم لك كيائك قويا لا يضيع ولا يتبدد ، وكنت أدعو الله
أن يخفف عنك آلام هذه الوحدة المفروضة التي ليس منها
مفر .

ولم أسلم من الهواجس : ترى كيف وقع نكران الجميل على نفسه ؟ انه خدم أناسا كثيرين ورد اليهم حقوقهم ، ورفعهم من ذل الى كرامة فاذا ببعضهم لا يقنع بما أصاب من خير ، ويطلب المزيد وبعضهم يظن أنه أقل من غيره اتفاعا ، فيغتم ويحسد ، بل منهم من نسى الحاضر سريعا . ولم يجدوا جميعا أحدا غيرك يحملونه مسئولية خيبة آمالهم الوضيعة .

والشعور بنكران الجميل ممن تحسن اليه سم تدوى عليه فضائل الروح ، ودعوت الله أن يهبك من الأناة والحكمة والرضى تريباقا يقيق هذا السم فلا يصدق عن شيء من خير أنت فاعله أن تمد لرجل يدك فيعضها .

وقلت آخر الأمر : عونك اللهم ! خذ بيده ! كانت نفسه من قبل خالصة له ، ربما عرفت لواذع الغضب والألم والحسرة والندم ، ولكنها كانت تجيئه موزعة من أفراد ، مثلثة الأطراف ، مخففة الوقع ، سريعة الزوال . ربما أمض روحه ما يرى وما يحس من المظالم التي تحقيق بقومه ولكنه ألم المتفرج والمشاهد . أما اليوم فهو يعانى رد المظالم بيديه ، هو فى صراع دائم مع قوى الشر ، تحاربه بكل سلاح ، حتى سلاح النفاق ونكران الجميل . ان نفسه أصبحت كوعاء ينصب فيه بقوة السيل تيار لا ينقطع من الهواجس والأحاديث والخواطر والتمليل والعذاب . الجروح والندوب . هى قدر يفور على النار ، محسكة الغلق . لأن

الافصاح دليل الضعف • فوداعا للتسليية الأغانى والأشعار ونزهة الغروب على ضفاف النهر ، بين أهله وأولاده وكنت أدعو الله أن تتسع نفسك كالبحر لا يعكر ماءه ما يلقى فيه من خبث •

وحمدت الله أنك لم تجعل لأحد أن يقول عنك • حرنا فى أمره ! ان له شخصيتين متناقضتين ، كما قالوا عن كثير من شواذ الحكام الذين فتحوا باب الرجاء لأهلهم فى مبدأ العهد بهم فلما دخلوه وجدوا من ورائه العذاب والشقاء ، ثم هلكوا حين غلب شرهم الأصيل على خيرهم الزائف ، وحين انطلقاً ذكأؤهم الخلب وبقيت حماقتهم وجهالتهم ، وهى - لطول الخفاء - أشد بشاعة من ذى قبل •• أما أنت فليس لك الا شخصية واحدة ، باطنك ظاهره ، فنجوت من العقد والتأويلات ، وأعفيت أهلك من الشكوك والمفاجآت ، ومع رائد مثلك يضمن السائر أن يصل الى غايته وان طال المدى •

وهنا استوقفنى الأستاذ وهو ينظر لساعته ويقول لى :

- هل أتم أنا كلامك ؟ اننى أعرف بقية قولك لأننى قرأت مذكراتك • ستذكرنى - وهل أنا غافل ! - بالتسامح والانتباه لحقوق الفرد كإنسان حتى قبل أن يكون حجراً مسخراً فى بناء المجتمع ، والتفريق بين إيمانك بأن رأيك صواب وبين إيمانك بأنه كل الصواب ، وأن الاخلاص وصواب الرأى توأمان ولكنهما توأمان غير ملتصقين •

ونظر الأستاذ الى ساعته مرة أخرى ، ثم بدا لي انه نسيني،
ونسي كل ما حوله ، وغاب عن الوجود ، كأنما يستمع لأصوات
بعيدة ، أو يجمع كل قواه استعدادا لحمل عبء ثقيل جديد ..
ولما عاد له اتباهه التفت الى طويلا وخيل لي أنه ود لو
استرسل معي في الكلام وفتح لي مغاليق قلبه ، ولكنه لم يفعل
بل واجهني صامتا وهو يتأملني مليا ثم وقف وقفة الجندي الصارم
ومد لي يده قائلا :

— انى انتظر منك أن تقوم بواجبك

وها قد فعلت ا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٢/١١٤٠٤

I.S.B.N 977-01-3631-x